لمحات في إعجاز سورة الأحزاب

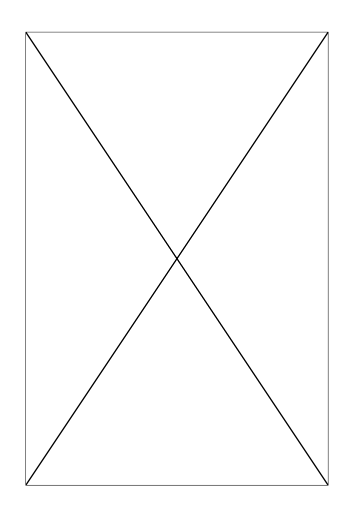
بقلـم

د. حســن محـمد باجــودة

أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة

جامعة أم القرى بمكّة المكرّمة

صفحه أبيض



المقدمة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الحمد للّه ربّ العالمين ، والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين، سيّدنا محمّد ، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

فقد طلبت رابطة العالم الإسلاميّ منّى - مشكورة- أن أسهم بإلقاء محاضرة في موسمها الثقافيّ للعام الهجريّ ١٤٢٠هـ .

فبادرت بفضل اللّه تعالى إلى الاستجابة بهذه الدّراسة وعنوانها :

(لمحاتٌ في إعجاز سورة الأحزاب) . وسبق أن قمت بدراستين اثنتين تتعلّقان بهذه السّورة المدنيّة الكريمة .

أولاهما : تأمّلاتٌ في سورة الأحزاب ، من مطبوعات نادى مكّة الثقافيّ الأدبيّ سنة ١٤٠٣هـ وأخراهما : ضمن سلسلة التّفسير البسيط للقرآن الكريم الّذي يساير المسابقة العالميّة للقرآن الكريم بالمملكة العربيّة السّعوديّة وتطبعه - مشكورة- وزارة الشّئون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد . لقد تمّ بفضل اللّه تعالى طبع تسعة عشر جزءاً من هذا التفسيركما تمّت بحمد اللّه تعالى كتابة تفسير الجزء السابع والعشرين ، حيث إنّي الآن أكاد

أكون متفرّغاً لكتابة هذا التفسير والله تعالى المستعان .

إنّ لكلٍّ من الدّراستين السّابقتين اللّتين تقعان في أكثر من ألف صفحة منهجها الدّراسي وهدفها . وهذه الدّراسة الثّالثة الّتي هي بمثابة الزُّبدة للدّراستين السّابقتين ، لها هي الأخرى منهجها الدّراسيّ الخاصّ بها . إنّ هذه الدّراسة تسعى إلى محاولة تبيين إعجاز هذه السّورة المدنيّة الكريمة في ضوء ما تختصّ به بين سائر سور القرآن الكريم من موضوع أو محور ، وهو الأمانة أو المسئوليّة . إنّها تركّز على المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة ، وهو الأمانة أداءً أو خيانة في ضوء تقسيم سورة الواقعة في ختامها الناس إلى مقرّبين وأصحاب يمين ومكذبين ضالّين ، كما تمّ ترتيب الفئات الّتى تحدّثت عنها السّورة الكريمة ، ابتداءً برأس الهرم وانتهاءً بالقاعدة . وبعد التّمهيد سارت الدّراسة وفق هذه العناوين :

من نعوت المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وخصائصه .

من نعوت زوجات المصطفى صلّى الله عليه وسلّم .

من نعوت المؤمنين .

أحكامٌ عامّةٌ .

دركات النّفاق .

الكافرون .

غدر يهود بني قريظة وعقابهم .

الخاتمة.

وكلّ هذه الدّراسات الثّلاث حرصت -بفضل الله تعالى- على تبيين معنى النّص القرآنيّ ، كما فهمه الأئمّة الأعلام . وبذلك ردّت هذه الدّراسات - بحمد الله تعالى - كلّ ما زلّت به أقلام حسنى النّيّة ، وسيّئى الطّويّة ، في حقٍّ بعض نصوص هذه السّورة المدنيّة الكريمة .

وفي ثنايا الدّراسة تمّ على جهة الخصوص الوقوف عند بعض مظاهر إعجازها . لقد أومأت الدّراسة إلى بعض الأسباب الّتي جعلت محمّداً صلّى الله عليه وسلّم هو الشّخص الوحيد في الدّنيا الّذي يمكن اتّخاذه أسوةً حسنة، على نحو ما قرّرت الآية الكريمة الحادية والعشرون ، كما أوْمَأتْ إلى الحكمة من وصف الآية الكريمة السادسة والأربعين المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بأنّه سراجٌ منير، وإلى الحكمة من نصّ الآية الكريمة الأربعين على أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم هو خاتم النّبيّين .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يتقبّل بفضله هذا العمل، وأن ينفع به، إنّه جوادٌ كريم، سميعٌ مجيب.

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله ربّ العالمين .

مكة المكرمة
صبيحة يوم الجمعة ١٤٢٠/١١/٢٦هـ
الموافق ٢٠٠٠/٣/٣م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه

د. حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
جامعة أمّ القرى بمككة المكرّمة

تمهيد

كلّ سـورة من سـور القـرآن الكريم يمكن أن تنزّل منزلة هذه الحديقة أو تلك . إنّ ثمّة صفات مشتركة بين الحدائق الغنّاء ، وإنّ ثمّة سمات خاصّة بكلّ حديقة . وإنّ شيئاً مثل هذا يصحّ أن يقـال عن سـور القـرآن الكريم . وإنّ ثمّـة صفات مشتركة بين الحدائق الغنّاء , وفي مقدّمتها اللّون الأخضر النّاضر . ووراء ذلك لكلّ حديقة سماتها الخاصّة بها . فهذه الحديقة - مثلاً- يغلب عليها اللّون الأصفر الفـاقع ، وتلك الأحمـر القـانىء ، وتلك الأبيض النّاصع . وهذه الحديقة -مثلاً- يغلب عليها الزّروع المعروشات كالأعناب ، وتلك يغلب عليها الزّروع غير المعروشات كاليقطين[1] وتلك يغلب عليها الزّرع، وتلك الشّجر ، وتلك النّخيل . وهكذا . ولا يستطيع أحدٌ أن يدّعي أنّ هنالك حديقتين متشابهتين تماماً ، وإن بدتا للوهلة الأولى كذلك .

إنّ شيئاً مثل هذا الّذي قيل عن كلّ حديقة يصحّ أن يقال عن كلّ سورة من سور القرآن الكريم . إنّ ثمّة صفات مشتركة بين سور القرآن الكريم كتلك الّتى بين الحدائق الغنّاء . ووراء ذلك لكلّ سـورة من سـور القـرآن الكريم سماتها المميّزة لها . إنّه كما يغلب على بعض الحدائق الورود أو الزّهور أو الرّياحين ومـا إلى ذلك، كـذلك لكلّ سورة من سور القرآن الكريم عبيرها وأريجها ، عطرها

(١) اليقطين : ما لا ساق له من النّبات كالقثّاء والبطّيخ وغلب على القرع .

وشذاها ، معانيها وموضوعاتها ، مسائلها وقضاياها ، الّتي تخدم الموضوع الرّئيس ، وتدور حول المحور الأساس .

وبشأن سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة[1] الّتي تتألّف من ثلاث وسبعين آية كريمة ، ومن ألف ومائتين وثمانين كلمة ، ومن خمسة آلاف وسبعمائة وستّة وتسعين حرفا[2] ما الّذي يمكن أن يقال بشأن المحور الّذي تدور حوله موضوعاتها وقضاياها؟ نستطع أن نقول : إنّ الأمانة أو المسؤليّة هي المحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة وتخدمه قضاياها . وقد نصّت الآيتان الكريمتان الأخيرتان من السّورة الكريمة على هذا المحور. قال عز منّ قائل: (إنّا عرضنا الأمانة على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . إنّه كان ظلوماً جهولاً . ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات . وكان الله غفوراً رحيماً)[3] .

ويبدو من الآيتين الكريمتين أنّ ثمّة عَرْضاً من الحقّ جلّ وعلا للأمانة على المخلوقات ، وأنّ جنس الإنسان الظّلوم لنفسه، الجهول لقدرته ، قد تفاوتت درجاته حفظاً للأمانة

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسّيوطي ١/٤٢ .

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنّيسابوري ٢١/٧٨ مطبوع بهامش تفسير الطّبري . الطبعة الأولى ، بولاق ١٣٢٨هـ .

(٣) سورة الأحزاب ٧٢ و ٧٣ .

وأداء ، كما تفاوتت دركاته تضييعاً للأمانة وخيانة . ولو أنّا تمثّلنا الفئات من البشر الّتي تحدّثت عنها السّورة الكريمة، من زاوية موقفها من الأمانة أداءً أو تضييعاً، وحاولنا أن نجد شبهاً لهذه الفئات، ابتداءً من الوفاء والقلّة ، وانتهاءً إلى الخيانة والكثرة ، لتبيّنّا أنّ خير شبه هو الهرم ، الّذي يدق رأسه ، وتتّسع قاعدته.

والحقيقة أنّ الهرم ، الّذي تتفاوت قدرات البشر، من الوجهة الحسّيّة ، في صعود درجاته ، وتجاوز سفوحه، والارتقاء إلى قمّته ، يكاد يكون خير تشبيه يمثّل الفئات من البشر ، الّتي تحدّثت عنها سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة، والّتى أخذت - من الوجهة المعنويّة - شكل الهرم . وتتّضح معالم هذا الهرم البشري ، ابتداءً من الوفاء والقلّة، وانتهاءً إلى الخيانة والكثرة ، حينما نذكر تلك الفئات من البشر الّذين تحدّثت عنهم السّورة الكريمة ، في أسلوبها المعجز ، الّذي يرضي كلّ عقل بفصوص حكمه ، ويشبع كلّ نفس بجليل معناه ، ويطرب كلّ أذن بجمال مبناه . وإنّما عمدنا إلى هذا التشبيه الحسّيّ من أجل جعل الأمر المعنويّ في هيئة الشّيء المحسوس ، والمتخيّل في صورة المعلوم.

وحينما نعيد الأمر إلى نصابه ، والحقّ إلى جَنابه، يتبيّن أنّ ترتيب الفئات من البشر في هذه الدّراسة إنّما كان في ضوء ترتيب القرآن الكريم لهذه الفئات في مثل قول الحقّ

جلّ وعلا في سورة الواقعة[1] : (فأمّا إن كان من المقرّبين . فَرَوْحٌ ورَيْحانٌ وجنّة نعيم . وأمّا إن كان من أصحاب اليمين . فسلامٌ لك من أصحاب اليمين . وأمّا إن كان من المكذّبين الضّالّين . فنزلٌ من حميم . وتصلية جحيم . إنّ هذا لهو حقّ اليقين . فسبّح باسم ربّك العظيم).

وهذه هي الفئات الّتي تحدّثت عنها السّورة الكريمة انطلاقاً من المقرّبين السّابقين .

من المعروف أنّ نعمة الرّسالة كبرى نعم الله تعالى على المصطفَيْن المنعم عليهم من عباده عزّ وجلّ ، تليها نعمة النّبوّة . ولمّا كان محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم أشرف المرسلين وخاتم النّبيّين وخير من أدّى الأمانة ونصح الأمّة فقد كان أمراً طبيعيّاً أن تتحدّث السّورة الكريمة عنه صلّى الله عليه وسلّم حديثاً مستفيضاً بأكثر من أيّ شخصيّة أخرى ، وهي السّورة الّتي محورها الأمانة . وكان حديث السّورة الكريمة عن محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم مستفيضاً ، لأنّه عليه الصّلاة والسّلام قد تجسّدت فيه كلّ النّعوت الموزّعة على سائر النّبيّين والمرسلين عليهم أجمعين صلوات وسلام رب العالمين، إضافةً إلى ما خصّه الله تعالى به من نعوت ونِعَم . ومن هذه النعوت والنّعم أنّه عليه

(١) الآيات ٨٨-٩٦ .

الصّلاة والسّلام ينادى وَحْده في القرآن الكريم : (يا أيها النّبيّ) (يا أيّها الرّسول) وهو زعيم أولي العزم الخمسة من الرّسل ، وهم نوحٌ ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمّد صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين ، إذ يأتى ذكره عليه الصّلاة والسّلام أوّلاً ، مع أنّه الآخر زمنا . وهو صلّى الله عليه وسلّم الأسوة الحسنة للمؤمنين . وهو صلّى الله عليه وسلّم رسول الله تعالى ، وخاتم النّبيّين . وبما أنّ النّبوة الطّريق الوحيد المؤدّي إلى الرّسالة ، ففي ختم النّبوّة ختمٌ ضمنيٌّ للرّسالة ، فهو صلّى الله عليه وسلّم خاتم المرسلين كذلك . وقد خصّ الله تعالى محمّداً صلّى الله عليه وسلّم بمجموعة من الأحكام . ومن هذه الأحكام سقوط القَسْم بين الزّوجات في حقّه عليه الصّلاة والسّلام، ومع ذلك فقد كان عليه الصّلاة والسلام الغاية في العدل بين الزّوجات في القَسْم ، مظهراً من مظاهر الخلق العظيم الّذي فطره الله تعالى عليه . إلى غير ذلك من نعوت .

ثمّ كان التّحوّل إلى الحديث عن بعض نعوت أمّهات المؤمنين ، رضوان الله تعالى عليهنّ ، اللّاتي أراد الله تعالى أن يطهّرهنّ تطهيراً . وممّا خصّهنّ الله تعالى به أنّهنّ بمنزلة الأمّهات الحقيقيّات للمؤمنين ، في الإكرام ، والتّوقير ، وعدم الزّواج بهنّ . وكنّ رضوان الله تعالى

عليهنّ ، الأسوة الحسنة للمؤمنات . وكلّ الأوامر والنّواهي في حقّهن أوامر ونواه في حقّ المؤمنات ، لأنّهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ الأسوة الحسنة للمؤمنات حقّاً وصدقا . وكلّ النعوت الّتي اتّسمن بها كانت ببركة اقترانهنّ بالمصطفى صلّى الله عليه وسلّم . وقد اقترن بهنّ مجموعةٌ من الأحكام الّتي كانت في الوقت ذاته أحكاماً في حقّ المؤمنات. ومن هذه الأحكام الحجاب ، وإدناء الجلباب ، والنّهي عن التّبرّج ، وعن الخضوع بالقول عند الكلام مع الرّجال غير المحارم . وحينما اخترن الله تعالى والرّسول صلّى الله عليه وسلّم والدّار الآخرة وأعرضن عن زينة الحياة الدّنيا كنّ الأسوة الحسنة في التّطبيق العمليّ لقول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة السّادسة : (النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم).

ثمّ كان التّحول إلى الحديث عن بعض نعوت المؤمنين . ولمّا كانت سورة الأحزاب تتحدّث عن غزوة الأحزاب أو الخندق ، وهي من أشقّ الغزوات نفسيّاً على المؤمنين إن لم تكن أشقّها ، وقد ضرب الصّادقون من المؤمنين أروع الأمثلة في التّضحية وبذل النّفس والنّفيس ، فقد كان هؤلاء موضع الثّناء عليهم في السّورة الكريمة . وإنّ هؤلاء المؤمنين قد كانت لهم أسوةٌ حسنةٌ في المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . إنّ منهم من بذل روحه رخيصةً في سبيل الله

تعالى ، وكأنّ الموت نذرٌ لله تعالى قد وفى به بنيل الشّهادة والظّفر بالسّعادة . وإنّ منهم من ينتظر دوره ، ويحرص على أن يفي بنذره ، بنيل الشّهادة والظّفر بالسّعادة هو الآخر.

وكما كان لهؤلاء الصّحابة ، رضوان الله تعالى عليهم ، في مجال الجهاد في سبيل الله تعالى ، أسوةٌ حسنةٌ في المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، بطل الأبطال وسيّد الرّجال ، كان لهم أسوةٌ حسنةٌ فيه صلّى الله عليه وسلّم في كلّ شؤون حياتهم . إنّهم يذكرون الله تعالى ذكراً كثيراً ، ويسبّحونه عزّ وجلّ في كلّ الأوقات ، ويصلّون ويسلّمون على النّبي صلّى الله عليه وسلّم ، الّذي يصلّى الله تعالى عليه وملائكتُه الأطهار . ولأنّ المؤمنين يذكرون الله تعالى ذكراً كثيراً ، ويخلصون له العبادة ، فإنّ الله تعالى يذكرهم في الملأ الأعلى . إنّه عزّ وجلّ يصلّي عليهم ويرحمهم ويثني عليهم ، وإنّ الملائكة تصلّي عليهم وتدعو الله تعالى وتستغفره عزّ وجلّ لهم .

وفي السّورة الكريمة أوامر أخرى للمؤمنين ونواه .

ولمّا كانت سورة الأحزاب من المدنيّ من القرآن، ولمّا كانت قد تحدّثت في بعض الحوادث الّتي وقعت في سنة خمسٍ من الهجرة كغزوة الخندق، وغزوة بني قريظة، وكانت من السّور الكريمة التي عملت على بناء الدّولة الإسلاميّة

والأمّة الإسلامية، فقد اشتملت على مجموعة من الأحكام. وقد وقفت الدّراسة عند تلك الأحكام. إنّ الحقّ جل وعلا الّذي قضى بأن تكون زوجات المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أمّهات للمؤمنين يَحْرُم الزّواج بهنّ، قضى ألا تكون الزّوجة المظاهر منها أمّاً، وألاّ يكون الظّهار طلاقاً، خلافاً لعادة العرب في الظهار، وقضى عز وجل بأن يكون في الظّهار الكفّارة. وكما قضى الحقّ جلّ وعلا ألا تكون الزّوجة المظاهَرُ منها أمّاً، قضى ألا يكون الدّعيّ، وهو المتبنَّى، ابناً على الحقيقة ، وبمنزلة الولد من الصُّلب.

لقد قضت السّورة الكريمة نظريّاً على عادة العرب في التّبني بالقول في الآيتين الكريمتين الرّابعة والخامسة: (وما جعل أزواجكم اللّائي تظاهرون منهنّ أمّهاتكم وما جعل أدعياء كم أبناءكم. ذلكم قولكم بأفواهكم واللّه يقول الحقّ وهو يهدى السّبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند اللّه. فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدّين ومواليكم. وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم. وكان الله غفوراً رحيماً) فزيدٌ مثلاً هو زيد بن حارثة، وليس زيد بن محمد، كما كان يُدعى حتّى نزول سورة الأحزاب الكريمة. وكذلك قضت السّورة الكريمة عمليّاً على عادة العرب في التبنّي، حينما زوّج الحقّ جلّ وعلا، من فوق سبع سماوات ، محمّداً صلّى الله عليه

وسلّم ، زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها، مطلّقة متبنّاه زيد بن حارثة. جاء في الآية الكريمة السّابعة والثّلاثين قول الحقّ جلّ وعلا: (فلمّا قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطرا . وكان أمر الله مفعولا) .

وإنّ الحق جلّ وعلا ، الّذي أنزل في سورة النّساء المدنيّة الآيات الثّلاث في المواريث، قضى بنسخ الأحكام المؤقتة في الميراث عن طريق الأخوّة الإيمانيّة الّتي عقدها المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بأمرٍ من ربه عزّ وجلّ بين المهاجرين والأنصار، بباعث الإيمان والهجرة، فكان المهاجريّ يرث الأنصاريّ، والأنصاريّ يرث المهاجريّ، دون ذوي رحمه . كما قضى على الإرث الّذي كان معمولاً به في الجاهليّة وصدر الإسلام عن طريق الحلف أو العهد . لقد أسهم في القضاء على الأحكام المؤقّتة في الميراث قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة السّادسة من السّورة الكريمة : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً. كان ذلك في الكتاب مسطوراً)

وقد بيّنت الآية الكريمة التّاسعة والأربعون من السّورة الكريمة أنّه لا عدّة على المرأة المطلّقة غير المفروض لها المهر وغير الممسوسة. قال عزّ من قائل : (يا أيها الّذين

آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثمّ طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ فما لكم عليهنّ من عدّةٍ تعتدّونها فمتّعوهنّ وسرّحوهن سراحاً جميلاً) .

وليس بخاف مجئ الإيماء إلى متعة الطلاق وإلى طلاق السّنّة غير البدعة في الآية الكريمة الثامنة والعشرين. قال عزّ من قائل:(ياأيها النبيّ قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدّنيا وزينتها فتعالين أمتّعكن وأسرّحكنّ سراحاً جميلاً).

ومن الفئات التي تحدّثت عنها سّورة الأحزاب المدنيّة حديثاً مستفيضاً المنافقون. والمعروف أنّ وجود المنافقين في المدينة المنوّرة بعد الهجرة أمرٌ طبيعيّ، تماماً كما كان وجود الكافرين في مكة المكرّمة قبل الهجرة أمراً طبيعيّاً أيضاً. وإنّما كان وجود المنافقين أمراً طبيعيّاً في المدينة المنوّرة بعد الهجرة لأنه لا فرق في الحقيقة بين المنافقين والكافرين لبّاً ومخبرا. إنّ المنافقين كافرون في الحقيقة، ولكنهم بسبب قوّة المؤمنين في المدينة المنوّرة بعد الهجرة وقيام الدّولة الإسلامية بالهجرة النّبوية ، أخفوا كفرهم وأعلنوا إيمانهم، كي يأمنوا على دمائهم وأموالهم وأعراضهم. وإنّما كان وجود الكافرين أمراً طبيعيّاً في مكّة المكّرمة قبل الهجرة لأنّ الكلمة كانت لهم، والشّوكة في أيديهم، وليس للمؤمنين آنذاك قولٌ ولا حَوْلٌ ولا طَوْل.

والمنافقون دركات . فهنالك المنافقون الخلّص . وقد

ضـربت لهـم سـورة البـقـرة المدنيّـة الكريمة مـثـلاً نـاريّاً في الآيتين الكريمتين السّـابعة عـشـرة والثّـامنة عـشـرة. وهؤلاء المنافقون الخلّص درجات. وهنالك المنافقـون المذبذبون بين الإيمان والكفر. وقد ضربت لهم سورة البقرة الكريمة مثلاً مـائياً في الآيتين الكريمتين التاسـعة عـشـرة والعشـرين . وهؤلاء المنافـقـون المذبذبون درجـات. وقـد تجلّى النّفـاق في صوره المتـعـدّدة في أثناء حـديث السّـورة الكريمـة عن غـزوة الأحـزاب في المقـام الأوّل . وقـد ذكـرت السّـورة الكريمة في ذلك الموضع أربع فـئـات من المنافـقـين، ويصحّ أن يقـال إنّ اثنتين منهـا تنتـمـيـان إلى المنـافـقين الخلّص، وإنّ اثنتين تنتميان إلى المنافقين المذبذبين بين الإيمان و الكفر .

وبشأن المنافـقين وقت السّلم ذكرت السّـورة الكريمة في نسقٍ ثلاث فـئـاتٍ منهم ، ويصحّ أن تلحق الفـئـة الأولى بالفـئـتين الأولى والثانيـة ، فـئـة المنـافـقين الخلّص ومن في حكمهم . كما يصحّ أن تلحق الفئة الثّالثة بالفئتين الثّالثة والرّابعة، فئة المنسحبين من ميدان القتال دون استئذان ولا حيـاء، وفئة المستـأذنين في الانسحـاب من ميدان القـتـال متعلّلين بأوهى الأعذار وأقبحها .

أمّا الفئة الباقية الثّالثة وهي فئة مرضى القلوب بشهوة الزّنا فإنّها تمثّل الفئة الخامسة والأخيرة التّي تحدّثت عنها سـورة الأحـزاب المدنّيـة الكريمة . وهـذه الفـئـات الثّـلاث

المذكـورة فـي نسق جـاءت الإشـارة إليـهـا فـي الآية الكريمة السّــتين. وإن الإشــارات الأخــر في السّــورة الكريمـة إلى المنافقين تعني الفئات الخمس المذكورة، بعضها أو جميعها.

وإنّه بالنّظر إلـى الفئـات المذكورة من المنافقين يتبيّن أن بعض المنافـقين يَهْـوِي في درك النّفــاق حــتّى يكون مع الكافـرين بل أحطّ منهم. كمـاَ يتبـيّن أنّ بعض المنافـقين المذبذبين يقلّ النّفـاق عندهـم أحـيـاناً حـتّى إنّهم يكادون يقتـربون في المرتبـة من المؤمنين الضّعـيفي الإيمان الّذين يعـبدون الله تعالى على حرف، والّذين أومـأت إليـهم الآية الكريمة الحـادية عـشـرة من سـورة الحجّ المدنيّـة الكريمة . لقـد غـاصت السّـورة الكريمة في أعـمـاق نفـوس المنافـقين وكشـفت سـوءاتهم، وفـضـحت عـوراتهم، وبيّنت دركـهم من النّفاق، قرباً من الكفر أو بعداً، بعداً عن الإيمان أو قرباً.

وكمـا تحـدّثت سـورة الأحـزاب الكريمة عن المنافقين في وقـتي الحـرب والسّلم ، تحـدّثت عـن الكافـرين فـي وقـتي الحــرب والسّلم أيضــاً. إنّ مــشــركي قــريش وغطفــان وحلفـاءهمـا قد رموا المؤمنين عن قوس واحدة، إضافةً إلى المنافقين من ناحيـة ، ويهود بنـي قريظة من ناحيـة أخرى. لقد جاء المشـركون في زهـاء عشرة آلاف مقاتل، بتحـريضٍ من وفد يهود بني النّضير بقيادة حُيَيّ بن أخْطَب النَّضَرى. وقــد صــوّر القــرآن الكريم أبلغ تصــوير ردّ الفــعل عند

المؤمنين: (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظّنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً)[١] وقد نصرالله تعالى عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، وردّهم بغيظهم وحنقهم وكربهم : (وردّ الله الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال. وكان الله قوياً عزيزاً)[٢]

والكافرون يستهزئون بيوم القيامة، وهم مطرودون من رحمة الله تعالى في الأولى والآخرة، ومأواهم النّار وبئس القرار. جاء في الآيات الكريمات من الثّالثة والسّتين إلى الثّامنة والسّتّين قول الحقّ جلّ وعلا:(يسألك النّاس عن السّاعة. قل إنّما علمها عند الله وما يدريك لعلّ السّاعة تكون قريباً. إنّ الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً. خالدين فيها أبداً لا يجدون وليّاً ولا نصيراً. يوم تُقَلَّب وجوههم في النّار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرّسولا. وقالوا ربنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السّبيلا. ربّنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً).

وللكافرين و المنافقين عذابٌ أليمٌ بسبب خيانتهم للأمانة، وذلك في مقابل ثواب المؤمنين والمؤمنات بسبب

---

(١) سورة الأحزاب ١٠.

(٢) سورة الأحزاب ٢٥ .

أدائهم الأمــانة، على نحــو مــا بيّنت آخــر آيات السّــورة الكريمة.

وآخر الفئات الّتي شملتها الدّراسة يهود بني قريظة الّذين نقضوا العهد الّذي كان بينهم وبين المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، وظاهروا المشركين وأعانوهم ضدّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين. وبذلك اجتمع على المؤمنين العــدوّ الخــارجيّ من المشــركين، والعــدّوان الدّاخليّــان، المنافقون ويهود بنى قريظة.وبذلك رمى أعداء الإسلام بكلّ فئاتهم المؤمنين عن قوسٍ واحدة. وقد تحدّثت الآيتان الكريمتان الســّادســة والعشــرون و السّابعة و العشرون عن غدر بني قريظة ومعاونة المشركين، وعن عقاب الله تعالى لهم في الأولى قبل الآخرة. إن ّالله تعالى هو الّذي أنزل يهود بنى قريظة ، الّذين نقضوا العهد و أعانوا المشركين ضدّ المؤمنين،مِنّ حصونهم،وهو عزّ وجلّ الّذي قذف في قلوبهم أشدّ الخوف، فمكن المؤمنين من قتل فريقٍ منهم وأسر فريق آخر، وهو عزّ وجلّ الّذي جعل المؤمنين يرثون أرض بنى قريظة وديارهم وأموالهم، ويرثون أرضاً أخرى لم يطأها المؤمنون من ذي قبل، وهي أرض خيبر. وكان الله تعالى قديراً على كل شئ، فلا يعجزه عزّ وجلّ شئٌ في الأرض ولا في السماء.

وفي أثناء الدّراسة وقفناعلى جهة الخصوص عند بعض

مظاهر إعجاز السّورة الكريمة. إنّ الآية الكريمة الحادية والعشرين مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في مجال الإنباء بالغيب. قال تعالى:﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجوالله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ وإنّ تقرير الآية الكريمة الأربعين أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم رسول الله وخاتم النبيّين مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم أيضاً. إنّ النّبوة الطريق الوحيد للرّسالة ففي ختم النّبوّة ختمٌ للرسالة. قال تعالى: ﴿ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النّبيّن. وكان الله بكلّ شئٍ عليماً﴾ وإنّ وصف الآية الكريمة السّادسة والأربعين محمّداً صلّى الله عليه وسلم بأنه سراجٌ منير، وليس سراجاً مضيئاً،مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم أيضاً، لأنّ هذا القول يخلع على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم خير ما في كلٍّ من الشّمس والقمر. جاء في الآيتين الكريمتين الخامسة والأربعين والسّادسة والأربعين قول الحق جلّ وعلا: ﴿يا أيها النّبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾

(١)

من نعوت المصطفى صلّى الله عليه وسلّم

وخصائصه

أ - (يا أيّها النّبيّ)

من نعوت محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم أنّ الحقّ جلّ وعلا يناديه عليه الصّلاة والسّلام وَحْدَه بإحدى صفتيه: (يا أيّها الرّسول) و (يا أيّها النّبيّ) أمّا سائر المرسلين والنّبيّين فإنّهم ينادَوْن بأسمائهم، ابتداءً بنوح عليه السّلام، وانتهاءً بعيسى عليه السّلام. وقد نادى الحقّ جل وعلا حبيبه صلّى الله عليه وسلّم بالقول: (يا أيّها الرّسول) في موضعين اثنين في القرآن الكريم هما الآيتان الكريمتان الحادية والأربعون والسّابعة والسّتّون من سورة المائدة. كما نادى الحقّ جلّ وعلا حبيبه صلّى الله عليه وسلّم بالقول: (يا أيّها النّبيّ) في ثلاثة عشر موضعاً في القرآن الكريم. منها خمسة مواضع في سورة الأحزاب. وثلاثة مواضع في سورة الأنفال في الآيات الكريمات الرّابعة والسّتّين، والخامسة والسّتّين، والسّبعين. وموضعان اثنان في سورة التّحريم في الآيتين الكريمتين الأولى والتاسعة. وموضعٌ واحدٌ في سورة التّوبة في الآية الكريمة الثّالثة والسّبعين . ويلاحظ أنّ هذه الآية الكريمة من سورة التّوبة هي ذات الآية الكريمة التّاسعة من سورة التّحريم. وموضعٌ واحد في سورة الممتحَنَة في الآية الكريمة الثّانية عشرة. وموضعٌ واحدٌ في سورة الطّلاق في الآية الكريمة الأولى.

وبذلك يكون النّــداء بالقول:(يا أيّها النّبي) قد جاء في سورة الأحزاب بأكثر ممّا جاء في أيّ سورة أخرى من سور

القــرآن الكريم. وهذا ممّا تخــتــصّ به ســورة الأحـــزاب الكريمة. وهذه هي المواضع الخمسة في السّورة الكريمة. قال تعالى[1] :(يا أيّها النّبيّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين. إنّ الله كان عليماً حكيماً) وقال تعالى[2] : (يا أيّها النّبيّ قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدّنيا وزينتها فتعالَيْنَ أمتّعكنّ وأسرحكن سراحاً جميلاً) وقال تعالى[3] : (يا أيّها النّبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) وقال تعالى[4] :(يا أيّها النّبيّ إنّا أحللنا لك أزواجك اللاّتي آتيت أجورهنّ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاّتي هاجرنَ معك وامرَأةً مؤمنةً إن وَهبت نفسهَا للنّبيّ إن أراد النّبيّ أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين. قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حَرَج. وكان الله غفوراً رحيماً) وقال تعالى[5] :(يا أيّها النّبّي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ.ذلك أدنى أن يُعْرفن فلا يؤذين. وكان الله غفوراً رحيماً) .

(١) سورة الأحزاب ١ .
(٢) سورة الأحزاب ٢٨ .
(٣) سورة الأحزاب ٤٥ .
(٤) سورة الأحزاب ٥٠ .
(٥) سورة الأحزاب ٥٩ .

ب - (النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم)

جاء في الآية الكريمة السّادسة من سورة الأحزاب الكريمة قول الحقّ جلّ وعلا : (النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم. وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً. كان ذلك في الكتاب مسطوراً).

ومعنى الآية الكريمة، و الله تعالى أعلم ، النّبيّ محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم أولى بالمؤمنين من أنفسهم فيجب أن يكون هواهم تبعاً لما جاء به صلّى الله عيه وسلّم من ربّه عزّ وجلّ، ويجب عليهم أن يحكّموه فيما وقع بينهم من خلاف ، وأن يرضوا بحُكْمه عليه الصّلاة والسّلام ويسلموا تسليماً . وأزواج المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أمّهات المؤمنين في منزلة الأمّهات الحقيقيّات في حرمة الزواج بهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين .

وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله تعالى الّذي أوحاه إلى حبيبه صلّى الله عليه وسلّم في مجال الميراث بسبب وشائج الدّم وروابط النَّسب، على نحو ما بيّنت آيات الميراث الثّلاث في سورة النّساء، وأحقّ بأن يرث بعضهم بعضاً من المؤمنين والمهاجرين الّذين كانوا يرثون في فجر الإسلام بسبب مؤاخاة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة . لقد كان

المهاجريّ يرث الأنصاريّ والأنصاريّ يرث المهاجريّ بسبب تلك المؤاخاة القائمة على الإيمان والهجرة دون ذوي الأرحام. قد أنهت الجزئيّة الكريمة هنا والجزئيّة الكريمة ذاتها في آخر الأنفال وآيات الميراث الثلاث في سورة النّساء الإرث المؤقّت الّذي قضى به أحكم الحاكمين وطبّقه المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، وهو الإرث بالمؤاخاة. وكذلك انتهى الإرث بالحلْف أو العَهْد الّذي كان معمولاً به في الجاهليّة والّذي أقرّه المصطَفى صلّى الله عليه وسلّم ولكنّه عليه الصّلاة والسّلام نهى عن إنشاء حلف جديد أو عهد جديد في ظلّ الإسلام.

وأَذِنت الآية الكريمة بل حثّت المؤمنين على أن يفعلوا إلى أوليائهم معروفاً ويوصلوا ويسدوا إليهم جميلاً من برٍّ وصلة ووصيّةٍ ومعروف وحمل دياتٍ وما إلى ذلك من صنائع المعروف، بدلاً من الإرث بالمؤاخاة أو الإرث بالحلف المؤقّتين واللّذين حلّ محلّهما الإرث وفق آيات الميراث الثّلاث. وآيات الميراث الثّلاث من سورة النّساء الكريمة هي الآيات الكريمات الحادية عشرة، والثّانية عشرة ، والسّادسة والسّبعون بعد المائة.

إنّ الإرث وفق آيات الميراث في الذّكر الحكيم النّاسخ لكلّ إرث مؤقّت سابق كان في الكتاب مسطوراً وفي اللّوح المحفوظ مدوناً وثابتاً.

وإنّ القول في الآية الكريمة: (النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم) الّذي يشمل المؤمنين جميعاً، يشمل في المقام الأوّل زينب بنت جحش وأخاها عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنهما، اللّذين استنكفا أوّل الأمر أن تتزوج زينب رضي الله تعالى عنها زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه. وقد نزلت الآية الكريمة السّادسة والثّلاثون من السّورة الكريمة عليه صلّى الله عليه وسلم، في أثناء اجتهاده عليه الصّلاة والسّلام في محاولته إقناع زينب رضي الله تعالى عنها الرّضا بالزّواج من زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه. إنّ زينب رضي الله تعالى عنها حينما علمت أنّ في زَواجها بزيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه رضا الله تعالى ورضا رسوله صلّى الله عليه وسلّم رضيت بزيد زوجاً لها، كما رضي بذلك أخوها عبد الله بن جحش رضي الله تعالى عنه.قال عز من قائل[1] : (وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرَةَ من أمرهم. ومن يَعْصِ الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً).

وقد بيّنت مجموعة من الأحاديث النّبويّة الشّريفة معنى الجزئيّة الكريمة: (النّبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) في الصّحيح عن أنس قال : قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبَّ إليه من والده وولده

(١) سورة الأحزاب ٣٦ .

والنّاس أجمعين[1] وفي الصّحيح أيضاً أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله ، والله لأنت أحبّ إليّ من كلّ شئٍ إلاّ من نفسي. فقال: لا يا عُمر حتّى أكون أحب إليك من نفسك. فقال: يا رسول الله لأنت أحبّ إليّ من كلّ شئٍ حتّى من نفسي، فقال: الآن يا عُمر[2] وأمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين حينما آثرن رضا الله تعالى ورضا رسوله صلّى الله عليه وسلّم واخترن الدّار الآخرة على الأولى طبقن فحوى قول الحقّ جلّ وعلا (النّبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فقصر الله تعالى حبيبه صلّى الله عليه وسلّم على هؤلاء الزّوجات الطّيبات[3] .

---

(١) فتح الباري ٥٨/١ حديث رقم ١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٨١/٦ . والرّياض النّضرة في مناقب العشرة لمحبّ الدّين الطبري ٢٩٧/٢ قال : أخرجاه . وأخبار عمر لعلي الطنطاوي وناجي الطنطاوي ٣٩٢ .

(٣) سورة الأحزاب ٥٢ .

ج- محمّد صلّى اللّه عليه وسلم وسلّم زعيم أولى العزم من الرّسل:

نعمة الرّسالة كبرى نعم اللّه تعالى على عباده المنعم عليهم المصطَفَيْن الأخيار. وتأتى نعمة النّبوّة بعدها .فكلّ رسول نبي وليس كلّ نبيٍّ رسولاً . ويشترك الرّسول والنّبيّ في إيحاء الله تعالى إليهما ، وتكليم الملائكة لهما. ويزيد الرّسول بأنّ الله تعالى قد أرسله إلى أمّته ، يدعوهم إلى الله تعالى بما أكرمه عزّ وجلّ به من وحي ، وخصّه من هَدْي[1] وأوّل الرّسل نوحٌ عليه السّلام[2] وآخرهم محمّد صلّى الله عليه وسلّم. ولنعمتي الرّسالة والنّبوّة حظهما الموفور في سورة الأحزاب .

وقد تحدّثت السّورة الكريمة عن الميثاق ، بمعنى العهد المؤكّد ، الذي أخذه عزّ وجلّ من النّبيّن. ثمّ كان النّصّ على أولي العزم الخمسة من الرّسل ، وترتيبهم تأريخيّاً على النحو التالي : نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّدٌ صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين. وكان الابتداء في سورة الأحزاب بمحمّد ابن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم، دليلاً على أنّه صلّى الله عليه وسلّم زعيم أولي العزم من الرّسل. قال عزّ من قائل[3] (وإذ أخذنا من النّبيّن

---

(١) انظر هنا طريق الهجرتين وباب السّعادتين لابن القيّم ٤٥٥ طبعة دار السّلفيّة ١٩٧٤م تحقيق السّيّد محبّ الدّين الخطيب ٣٥٠ .

(٢) انظر مثلاً فتح الباري ٣٩٥/٨ حديث رقم ٤٧١٢ .

(٣) سورة الأحزاب ٧ و ٨ .

ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً. ليسأل الصّادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً).

والمعنى،والله تعالى أعلم،واذكر يا محمّد إذ أخذنا من النّبييّن ميثاقهم والعهد المؤكّد منهم، بأن يبلّغوا الرّسالة ويؤدّوا الأمانة

ويكونوا لقومهم النّاصحين الأمناء . وبعد الإشارة إلى النّبييّن على جهة العموم يأتي ذكر أولي العزم منهم على جهة الخصوص ، وبذلك يُعْطَف الخاصّ على العامّ . ويأتي ذكر محمّد صلّى الله عليه وسلّم أوّلاً ، دليلاً على أنّه صلّى الله عليه وسلّم زعيم أولي العزم من الرّسل ، ثمّ يأتي ذكر نوحٍ عليه السّلام أوّل الرّسل ، ثمّ يذكرون تأريخيّاً ، وهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه.

وقد جاء ذكر أولي العزم الخمسة من الرّسل في موضع آخر من القرآن الكريم ، هو الآية الثّالثة عشرة من سورة الشّورى الكريمة. ولمّا كان الحديث عمّا شرع الله تعالى للنّاس من الدّين، وكان نوحٌ عليه السّلام أول الرّسل ، فقد لزم الابتداء بذكره عليه الصّلاة والسلام، ثمّ كان ذكر محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، دليلاً آخر على أنّه عليه الصّلاة والسّلام زعيم أولي العزم من الرّسل، ثمّ كان ذكر

الرّسل الثّـلاثة الكرام مـرتّبين تأريخـيّـاً . قـال عـزّ من قـائل[1] : (شـرع لكم من الدّين مـا وصّى به نوحـاً والّذي أوحينا إليك ومـا وصّينا به إبراهيم ومـوسى وعيسى أن أقيـموا الدّين ولا تتفـرّقـوا فيـه. كبر على المشـركين مـا تدعـوهم إليـه. الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليـه من ينيب) .

وأولو العـزم من الرّسل مـعـروفـون بصـبـرهـم . قـال تعـالى:[2] (فـاصـبـر كمـا صـبـر أولو العـزم من الرّسل ولا تستعجل لهم كأنّهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلاّ ساعةً من نهار بلاغٌ فهل يُهلَك إلاّ القوم الفاسقون) .

---

(١) سورة الشّورى ١٣ .

(٢) سورة الأحقاف ٣٥ .

د - محمّد صلّى الله عليه وسلّم الأسوة الحسنة للمؤمنين:

جاء في الآية الكريمة الحادية والعشرين من سورة الأحزاب الكريمة قول الحق جلّ وعلا : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) والمعنى ، والله تعالى أعلم : لقد كان لكم أيّها المؤمنون دائماً وأبداً في رسول الله تعالى ، محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم ، أسوةٌ حسنةٌ تتأسّوْن بها ، وقُدْوةٌ مُثْلَى تحتذونها ، ومَثَلٌ أعلى يجتهد كلّ من كان يرجو ثواب الله تعالى في الأولى والآخرة ، وذكر الله تعالى ذكراً كثيراً ، يجتهد في مراعاته ، ويحرص على محاكاته.

والحقيقة أنّ الآية الكريمة مظهرٌ جليلٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم في مجال الإنباء بالغيب ، وذلك حينما تقرّر الآية الكريمة أنّ لنا نحن المسلمين أسوةً حسنةً في محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم . وتفسير ذلك أنّا حينما نتأمّل جميع أفراد الإنسانيّة ابتداءً بآدم عليه السّلام وانتهاءً إلى يوم النّاس هذا ، بل -عقلاً ونقلاً- إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها ، ونبحث عن الشّخص الّذي يصحّ أن يُتَّخذَ أسوةً حسنةً فإنّ ذلك الشّخص هو محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم وَحْدَه دون سواه . إنّا لا نستطيع أن نتّخذ أيّ شخصٍ أسوةً حسنةً ، وفيهم ، بل وفي مقدّمتهم أشهر رسولين كريمين ، موسى وعيسى

عليهما الصّلاة والسّلام . أمّا السّبب وراء عدم استطاعتنا اتّخاذَ أيٍّ من الرّسولين الكريمين أسوة حسنةً ، فضلاً عن غيرهما من الّذين يقلّون عنهما شهرةً وأتباعاً ، فهو أنّا لا نكاد نعرف من سيرة هذين الرّسولين الكريمين إلاّ القليل الّذي لا يمكن معه اتّخاذ أحدهما أسوةً حسنة . ويكفي -مثلاً- أن يقال عن عيسى عليه الصّلاة والسّلام ، الأكثر أتباعاً ، إنّ الدّراسات العلميّة الحديثة قد انتهت إلى أنّ كلّ الّذي يُعْرَف عن عيسى عليه الصّلاة والسّلام هو المتعلّق بالخمسين يوماً الأخيرة من حياته عليه الصّلاة والسّلام ، وليس بالسّنوات الثّلاث الأخيرة من حياته عليه الصّلاة والسّلام كما كان يُظنّ من ذي قبل[1] وإذا كان هذا هو الّذي يقال عن عيسى عليه الصّلاة والسّلام ، فما الّذي يمكن أن يقال عن الآخرين الّذين يقلّون شُهْرةً وأتباعاً !

وبشأن محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وسلّم نحن نعرف عنه كلّ صغيرة وكبيرة ، منذ أن وُلِدَ عليه الصّلاة والسّلام إلى أن لحق بالرّفيق الأعلى . إنّ سيرة محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم هي السّيرة الوحيدة في الدّنيا الكاملة ، لأنّها تغطّي حياته صلّى الله عليه وسلّم كلّها ، العلميّة ، لأنّ مصادرها موثّقة وممحّصة ، العمليّة ، لأنّ حياة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم تجسيدٌ لهديه

(١) انظر دائرة المعارف البريطانية الطّبعة الرّابعة عشرة . مادّة : "عيسى" ..

عليـه الصّـلاة والسّـلام ، ولأنّ خلقـه صلّى الله عليـه وسلّم القرآنُ الكريم .

ودليـلاً على شمولٍ سيرته عليه الصّلاة والسّلام جميع جـوانب شئونه عليـه الصّلاة والسّـلام أنّ المصـادر الموثّقـة بيّنت -مـثــلاً- أنّه صلّى الله عليــه وسلّم تُوُفِّي وليس في رأسه ولحيته عشرون شَعْرةً بيضاء[1] وعن أنس بن مالك قال : ما عَدَدتُ في رأس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولحيته إلا أرْبَع عَشْرَة شعرةً بيضاء[2] .

وحينما نشير إلى أهمّ مصادر السّيرة النّبويّة الشّريفة تتأكّد الحقيقة الّتى أومأنا إليها بأنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم هو وَحْـدَه الّذي يُمْكِنُ اتّخـاذه أسـوةً حـسنـةً . وهذه المصادر هي :

١- القرآن الكريم الّذي تكفّل الله تعالى بحفظه إلى يوم الدّين ، دون سائر الكتب السّماويّة السّابقة . قال عزّ من قـائل[3] : (إنّا نحن نزّلنا الذّكـر وإنّا له لحـافظون) وقـد اشتمل القرآن الكريم على الكثير من جوانب حياته صلّى الله عليه وسلّم في مختلف المراحل .

٢- السّنّة النّبويّة المطهّرة . والمراد أقواله صلّى الله عليه

---

(١) الشّمائل المحمّديّة للإمام التّرمذي ١٤.

(٢) الشّمائل المحمّديّة للإمام التّرمذي ٥٣ .

(٣) سورة الحجر ٩ .

وسلّم وأفعاله وتقريراته وصفاته . والمراد بالتّقريرات ما أقرّ صلّى الله عليه وسلّم الآخرين على عمله ، فَعُلم أنّه حلال . ومن تلك التّقريرات أنّ الضّبّ أُكلَ على مائدة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، ولم ينه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن ذلك ، فَعُلم أن أكله حلال[1] والمراد بصفاته شمائله وأخلاقه عليه الصّلاة والسّلام . ومن أحسن المؤلّفات في هذا المجال كتاب : الشّمائل المحمّديّة للإمام التّرمذي تلميذ الإمام البخاري[2] وقد وُلِد بترمذ سنة ٢٠٩هـ وتوفي فيها سنة ٢٧٩ه[3] وقد جمع الإمام التّرمذي في الشّمائل المحمّديّة ثلاثمائة وسبعةً وتسعين حديثا[4] وكُتُب الحديث حفظت لنا من أقوال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأفعاله وأحواله ما يبلغ مائة ألف حديث. وقد امتاز الصّحيح منها عن الضّعيف والموضوع ، والقويّ منها من غير القوي[5] وقد سخّر الله سبحانه وتعالى جيشاً من العلماء الرّبّانيّين الّذين عُنوا بالسّيرة النّبويّة المطهّرة ، وأنفقوا حياتهم في خدمتها .

وفي مقدّمة كتب الحديث الصّحاح الكتب السّتّة للأئمّة

---

(١) انظر فتح الباري ٦٦٣/٩ حديث رقم ٥٥٣٧ .

(٢) الشمائل المحمّديّة٩ وانظر الرّسالة المحمّديّة ١٠٥ و ٩٥ .

(٣) الشمائل المحمّديّة ٧ .

(٤) الشّمائل المحمّديّة ٣

(٥) الرّسالة المحمّديّة ٩٣ .

الأعلام، البخاري ، ومسلم ، والتّرمذي ، والنّسائي ، وابن ماجه ، وأبي داود . ويلحق بها موطّأ الإمام مالك ، ومسند الإمام أحمد بن حنبل .

٣- كتب التّاريخ والسّير والمغازي والشّمائل والمعجزات . وقد جرت عادة المؤرّخين أن يبدأوا التّاريخ الإسلاميّ بسيرة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . وما أكثر المؤلّفات في السّيرة النّبويّة في جميع لغات الإنسانيّة ، لمؤلّفين مسلمين وغير مسلمين . ولا يكاد يأتي الحصر على عدد المؤلّفات في السّيرة النّبويّة العطرة . ويكفي دليلاً على ذلك أنّ اللّغة الأرديّة الصّغيرة السّنّ قد قُدِّر عدد المؤلّفات في السّيرة النّبويّة في هذه اللّغة قبل زهاء ثمانين عاماً بأنّه يزيد على ألفي كتاب[١] وما ألّف في السّيرة النّبويّة في اللّغات الأوروبيّة لا يكاد يقلّ كثيراً عن هذا العدد[٢] .

ونحن حينما نتحدّث عن مصادر السّيرة النّبويّة الشّريفة لا نستطيع إلاّ أن نقف خاشعين أمام الصّحيفة الصّادقة التى كتبها عبد الله بن عمرو بن العاص بين يدي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبإذن منه. ففى سنن أبى داود ومسند الإمام أحمد أنّ عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كنت أكتب كلّ شيءٍ أسمعه من رسول الله صلّى الله عليه

---

(١) انظر الرّسالة المحمّديّة ٩٦ و ٩٧.

(٢) انظر الرّسالة المحمّديّة ٩٧.

وسلّم أريد حفظه،فنهتني قريش عن ذلك وقالوا : تكتب ورسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول في الغضب والرّضا! فأمسكت ، حتّى ذكرت ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال : اكتب . فو الّذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حقّ ، وأومأ بإصبعه إلى فيه حين قال ذلك[١] وسمّى عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفته هذه الصّادقة[٢] وقد روى الإمام البخارى في صحيحه[٣] أنّ أبا هريرة رضى الله تعالى عنه قال ما من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أحدٌ أكثر حديثاً عنه منّي ، إلاّ ما كان من عبد الله بن عمرو[٤] فإنّه كان يكتب ولا أكتب[٥]

٤- الشّعر الّذى قيل في مدحه صلّى الله عليه وسلّم ، والدّعوة إلى اللّه تعالى ، والذب عن بيضة الإسلام ، والرّدّ على شعراء المشركين . ويأتي على رأس قائمة هؤلاء الشّعراء حسّان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنهم . ومن هذا الشّعر ما جاء في

(١) الرّسالة المحمّديّة ٧٩ وانظر فتح الباري ٢٠٧/١ .

(٢) الرّسالة المحمّديّة ٨٠ .

(٣) فتح البارى ٢٠٦/١ حديث رقم ١١٣ .

(٤) أى ابن العاص . فتح الباري ٢٠٧/١ .

(٥) انظر كذلك ص و ك من الجزء الأوّل من موطّأ الإمام مالك .

صحيح الإمام البخاري[1] وهذا أمرٌ عزيز المنال . ولم يتحقّق شيءٌ كهذا ولا قريبٌ منه لدى أيّ أمّة من الأمم .

ومِنَ الشّعر الّذي كان يحبّه صلّى الله عليه وسلّم الأبياتُ الّتى قالها عبد الله بن رواحة رضي الله تعالى عنه في مدح النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم . عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : إنّ أخاً لكم لا يقول الرّفث ، يعني ابن رواحة ، لقوله هذه الأبيات :

وفينا رسولُ الله يتلو كتابه
إذا انشقّ معروفٌ من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقناتٌ أنّ ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه
إذا استثقلت با لمشركين المضاجع
وأعلم علماً ليس بالظّنّ أنّني
إلى الله محشورٌ هناك وراجع[2]

هذه هي أهمّ مصادر سيرة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم . ويتبيّن من ذلك أنّا نعرف كلّ صغيرة وكبيرة عن

(١) انظر -مثلاً- صحيح البخاري ١٤٠/٥ وفتح الباري ٣٩٩/٧ و ٤٠٠ حديث رقم ٤١٠٤ و٤١٠٦ .

(٢) ديوان عبدالله بن رواحة الأنصاري الخزرجي شاعر الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم ٤٣ وانظر مثلا فتح البارى ٤٠٠/٧ حديث رقم ١٤٠٦.

المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، وبذلك يتسنّى اتّخاذه صلّى الله عليه وسلّم أسوةً حسنةً وحده دون سواه. إنّ ذلك قد قرّرته الآية الكريمة.

وإنّ من ألطف ما نرغب في لفت الانتباه إليه هو أنّ الآية الكريمة الّتي تقرّر أنّ لنا نحن المسلمين أسوةً حسنةً في المصطفى صلّى الله عليه وسلّم تجيء في أثناء حديث السّورة الكريمة عن غزوة الأحزاب الّتى زاغت فيها أبصار المؤمنين وبلغت قلوبهم الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً . لقد نصر الله تعالى المصطفى صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين نصراً مؤزراً على مشركي قريش وغطفان وحلفائهما الّذين رموا المؤمنين عن قوسٍ واحدة . وإنّ مجيء الآية الكريمة في أثناء الحديث عن هذه الغزوة الّتي تكاد تكون أشقّ الغزوات على المؤمنين من الوجهة النّفسيّة تنبيهٌ للمؤمنين وحثّ لهم على اتّخاذ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أسوةً حسنةً لهم في كلّ مجالات الحياة ، وبخاصّة في مجال الجهاد في سبيل الله تعالى .

إنّ على المؤمنين أن يعوا درس الجهاد في سبيل الله تعالى جيّداً ، وأن يعلموا أنّ عليهم أن يعدّوا لأعداء الله تعالى ما استطاعوا من قوّة يرهبون بها عدوّ الله تعالى وعدوّهم ، وأنّ الحقّ عزّ وجلّ قد اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة الّتي فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وهكذا يتبيّن أنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم هو الأسوة الحسنة لكلّ مؤمن ، وأنّ كلّ مؤمن يتخصّص في جانبٍ من جوانب الحياة الواسعة يستطيع أن يتّخذ منه صلّى الله عليه وسلّم أسوة حسنة . وبقدر توفيق الله تعالى ثمّ اجتهاد المؤمن في الجانب المتخصّص فيه يكون حظّه من الارتقاء في سفوح عظمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم في ذلك الفنّ الّذي يتخصّص فيه ذلك المؤمن . إنّ المؤمن لا حدود لبشْره ولا نهاية لسعادته حينما يوفق في الارتقاء درجة أو درجات في سفوح عظمته صلّى الله عليه وسلّم في هذا الفنّ أو ذاك الجانب . وإنّ قمم عظمته صلّى الله عليه وسلّم بعدد كلّ الجوانب والفنون والشّخصيات . وإنّ النّفس السّعيدة هي الّتي باركها الله تعالى فوفّقها كي تقطع خطوةً أو خطوات ، في سفح تلك العظمة ، أو ترقى درجة أو درجات في سلّم تلك الأسوة الحسنة .

كن من شئت فسوف تجد في المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أسوتك الحسنة ، وقدوتك المُثْلَى . وإنّك لسعيدٌ حقّاً حينما توفق فتقطع في الجانب المتخصّص فيه خطوةً أو خطوتين ، وترقى في الفنّ المنقطع له درجة أو درجتين .

والله تعالى المستعان ووليّ التوفيق .

هـ - محمّد صلّى الله عليه وسلّم رسول الله وخاتم النّبيّين:

جاء في الآية الكريمة الأربعين من سورة الأحزاب قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ما كان محمّدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين . وكان الله بكلّ شيءٍ عليماً﴾ والمعنى ، والله تعالى أعلم، ما كان محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم أبا أحدٍ من رجالكم أدرك الحُلُم وبلغ مبلغ الرّجال منكم أيّها المؤمنون . ولكن كان رسول الله تعالى وخاتم النّبيّين وآخرهم ، وكان الله تعالى عليماً بكلّ شيء.

والآية الكريمة نزلت ردّاً على المنافقين ومن لفّ لفّهم من المشركين الّذين زعموا أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم بزواجه من زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها بعد طلاقها من زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه وانقضاء عدّتها إنّما تزوّج مطلّقة ابنه زيد ، لأنّ العرب قبل الإسلام كانت تُنزِّل المتبنَّى منزلة الابن من الصّلب . إنّ الآية الكريمة تقول لأولئك : إنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم ليس أبا أي رجل من رجالكم أيّها المؤمنون وأيّها النّاس ، فكلّ أولاده عليه الصّلاة والسّلام ماتوا قبل الحُلُم ، وزيدٌ هذا ليس زيد بن محمّد على الحقيقة ، ولكنّه زيد بن حارثة ، فمن حقّ كلّ من تبنَّى شخصاً أن يتزوّج مطلّقته ، يستوى في ذلك محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم وجميع المؤمنين .

والمعروف أنّ السّورة الكريمة قضت في أوّلها نظريّاً على عادة العرب في تنزيل المتبنَّى منزلة الابن من الصّلب في منع زواج المتبنِّى مطلّقة متبنّاه . قال عزّ من قائل[1] : ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللّائى تظاهرون منهنّ أمّهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم. ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحقّ وهو يهدي السّبيل﴾ والمعنى ، والله تعالى أعلم ، ما جعل اللّه تعالى لرجل من قلبين اثنين في صدره خلافاً لزعم الكافرين بأنّ ثمّة رجلاً من قريش له قلبان يعقل بكلّ واحد منهما أفضل من عقل محمّد صلّى الله عليه وسلّم[2] وما جعل الله تعالى زوجاتكم اللّاتي تظاهرون منهنّ أمّهاتكم ، وقد كان العرب يعتبرون الظّهار طلاقاً وذلك حينما يقول الرّجل لزوجته: أنت عليّ كظهر أمّى. إنّ الإسلام لم يعتبر الظّهار طلاقاً وجعل فيه الكفّارة على نحو ما بيّنت الآيتان الكريمتان الثّالثة والرّابعة من سورة المجادلة . وما جعل الله تعالى أدعياءكم ومن تبنّيتموهم أيّها المؤمنون أبناءكم على الحقيقة. إنّ تنزيل الزّوجة بالظّهار منزلة الأمّ، وتنزيل المتبنَّى منزلة الابن من الصّلب، لا يعدو كلٌّ منهما كونه قولا بالأفواه وكلاما بالألسنة، وليس لكلّ ذلك نصيبٌ من

---

(١) سورة الأحزاب ٤ .

(٢) انظر أسباب النّزول للنّيسابوري ٤٠٧ .

الحقيقة ورصيدٌ من الواقع . والله تعالى يقول الحقّ وينطق بالصّواب ، وهو الهادي إلى سواء السبيل ، وفصل الخطاب.

وهكذا قضى القرآن الكريم نظريّاً على عادة العرب في التّبنّي، وبناءً على ذلك فزيدٌ هو ابن حارثة أبيه ، وليس ابن محمّد صلّى الله عليه وسلّم متبنّيه .

وكذلك تمّ القضاء عمليّاً على ظاهرة التّبنّي حينما زوّج الحقّ جلّ وعلا محمّداً صلّى الله عليه وسلّم زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها ، مطلّقة زيد بن حارثة ، الّذي كان يُدعى زيد بن محمّد . قال تعالى [1] : (فلمّا قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطرا . وكان أمر الله مفعولاً).

وبعد أن قرّرت الآية الكريمة الأربعون من سورة الأحزاب أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم ليس أبا أحد من رجال المؤمنين قرّرت أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم رسول الله وخاتم النّبيّين.

والمعروف أن نعمتي الرّسالة والنّبوّة أكبر نعم الله تعالى على المنعم عليهم من عباده عزّ وجلّ ، وأنّ نعمة الرّسالة

---

(١) سورة الأحزاب ٣٧ .

أكبر من نعمة النّبوّة ، وأنّ نعمة النّبوّة هي الطّريق الوحيد المؤدّي إلى نعمة الرّسالة . إنّ كلّ رسول نبيّ ، وليس كلّ نبيٍّ رسولا . إنّ الرّسول والنّبيّ يشتركان في إيحاء الله تعالى إليهما ، وكلام الملائكة لهما . ويزيد الرّسول بأنّه يرسله الله تعالى إلى أمّته كي يبلّغها ما أكرمه الله تعالى به منْ وحي ، وخصّه به من هَدْي[1]

وإنّ في القول : (ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين) مظهراً من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . لقد عرفنا أنّ ثمّة درجتين ، درجة الرّسالة العليا ، ودرجة النّبوّة المؤدّية إلى درجة الرّسالة . وليس ثمّة طريقٌ آخر للوصول إلى درجة الرّسالة . وكأنّنا بصدد بناءٍ يتألّف من دورين اثنين ، ولا يمكن الصّعود إلى الدّور الثّاني إلاّ عن طريق الدّور الأوّل . إنّ الدّور الأوّل بمثابة النّبوّة . وإنّ الدّور الآخر بمثابة الرّسالة. وما معنى إيصاد باب الدّور الأوّل؟ معناه إيصاد باب الدّور الثّاني لأنّه لا يمكن القفز من الخارج إلى الدّور الثّاني ، ولأنّه يلزم المرور بالدّور الأوّل من أجل الوصول إلى الدّور الثّاني .

وهكذا يقرّر القول : (ولكن رسول الله وخاتم النّبيّين) نعمتين كبريين على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، وهما

---

(١) انظر طريق الهجرتين وباب السّعادتين لابن القيّم ٤٥٥ وتحقيق السّيّد محبّ الدّين الخطيب الطّبعة الأولى والثّانية ٣٥٠ .

نعمة الرّسالة ، ونعمة ختم النّبوّة .

ولمّا كان كلّ رسـول نبيّاً كان معنى القول:(ولكن رسول الله) ولكن كان محمّد رسول الله تعالى ونبيّه كذلك ، وهذا من باب الأحْرى والأوْلى .

ولمّا كان للّرسالة طريقٌ واحدٌ هو النّبوّة كان معنى القول: (وخاتم النّبيّين) وكان محمّد خاتم النّبيّين وآخرهم، وخاتم المرسلين وآخرهم ، من باب الأحْرى والأوْلى .

وهكذا يثبت لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم بالقول : (ولكن رسول الله) نعمة الرّسالة ونعمة النّبوّة . كما يثبت لمحمّد صلّى الله عليه وسلّم بالقول : (وخاتم النّبيّين) نعمة ختم النّبوّة ونعمة ختم الرّسالة . إنّ من مظاهر إعجاز الآية الكريمة أنّها لا يجيء فيها القول : "وخاتم المرسلين" لأنّ هذا القول يجعل باب النّبوّة مفتوحاً ، ولكن يجيء القول : (وخاتم النّبيّين).

وهكذا يتبيّن في الآية الكريمة مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم . قال تعالى : (ما كان محمّدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النّبيّن . وكان الله بكلّ شيءٍ عليماً).

و - محمّد صلّى الله عليه وسلّم سراج منير :

جاء النّصّ على أنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم سراجٌ منير في قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأحزاب[1] :(يا أيّها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيرا. وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً. ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكّل على الله.وكفى بالله وكيلاً) والمعنى، والله تعالى أعلم ، يا أيّها النبّيّ محمّد، إنّا أرسلناك شاهداً على أمّتك بأنّك قد بلّغت الرّسالة وأدّيت الأمانة وكنت لقومك النّاصح الأمين. ويلاحظ أن الآية الكريمة تجمع له صلّى الله عليه وسلّم بين نعمتي النّبوة والرّسالة معاً. وبذلك تكون الآية الكريمة مؤكّدةً لفحوى الآية الكريمة الأربعين. قال تعالى:(ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النّبيّن. وكان الله بكل شئٍ عليماً) .

وكما أرسل الحقّ جلّ وعلا محمّداً صلّى الله عليه وسلّم شاهداً أرسله الله عزّ وجلّ مبشراً من أطاعه عليه الصّلاة والسّلام بدخول الجنّة يوم القيامة، ومنذراً من عصاه بدخول نار جهنّم. وأرسل الحقّ جلّ وعلا محمّداً صلّى الله عليه وسلّم داعياً إلى دين الله تعالى ، دين الإسلام لله رب العالمين، بأمره جلّ وعلا، وأرسله سراجاً منيراً، يُخْرِج بإذن

(١) الآيات ٤٥-٤٨ .

الله تعـالى النّاس من ظلمـات الشّـرك والجـهل ، إلـى نور التّوحيد والعلم.

وأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه صلّى الله عليه وسلّم بأن يبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله تعالى فضلاً كبيراً وأجراً عظيماً، في الجنّة التّي فيها مالا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خر على قلب بشر.

ونهى الحقّ جلّ وعلا حبيبه صلّى الله عليه وسلّم أن يطيع الكافرين الّذين يعلنون الكفر وأن يداهنهم، والمنافقين الّذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان. وأمره أن يدع أذى الفريقين له صلّى الله عليه وسلّم، ويضرب عنهم الذّكر صفحاً، إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً، وأن يتوكل على الله تعالى وحده دون سواه حقّ التوكّل، وكفى بالله تعالى وكيلاً وحافظاً، قيّماً وراعياً.

فما معنى القول:(وسراجاً منيراً) ؟

السّراج : المصباح الزّاهر[(١)] بفتيلة ودهن. ويعبّر به عن كل مضيء[(٢)] والسّراج: الشّمس[(٣)] والشّمس نجم. وعرّف العلماء النجم بأنّه أحد الأجرام السّماويّة المضيئة بذاتها، ومواضعها النّسبيّة في السّماء ثابتة،

---

(١) لسان العرب : "سرج" .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : "سرج" ٣٠٣/١ .

(٣) لسان العرب : "سرج" .

ومنها الشّمس[1] وعرّف العلماء الشمس بأنها النّجم الرّئيس الّذي تدور حوله الأرض وسائر كواكب المجموعة الشّمسيّة[2] ويرتبط بالنجم الكوكب. وعرّف العلماء الكوكب بأنّه جرمٌ سماويّ يدور حول الشّمس ويستضيء بضوئها. وأشهر الكواكب مرتّبة على حسب قربها من الشّمس: عطارد، الزُّهَرة، الأرض، المرِّيخ، المشتري، زُحل، يورانس، نبتون، بلوتون[3]، ويرتبط بالشّمس القمر. والقمر جرْمٌ سماويٌّ صغير يدور حول كوكب أكبر منه ويكون تابعاً له، ومنه القمر التّابع للأرض[4].

وبذلك يكون النّجم مولّداً للطّاقة ومصدراً لها ، ويكون الّذي يصدر عنه الضّوء أو الضّياء ، مثل الشّمس الّتى يصدر منها الضوء أو الضّياء .

ويكون الكوكب غير مولِّد للطّاقة وغير مصدر لها ، ويكون دوره استقبال ضياء النّجم وتحويله وإرساله نوراً ، وبذلك يقوم الكوكب بدور المرآة العاكسة التى تعكس الضّياء نوراً ، مثل القمر الّذي يستقبل ضوء الشّمس ويعكسه نورا .

---

(١) المعجم الوسيط : "نجم" .

(٢) المعجم الوسيط : "شمس" .

(٣) المعجم الوسيط : "الكوكب" .

(٤) المعجم الوسيط : "القمر" .

إنّ هذه الحقائق العلميّة بشأن الفرق الدّقيق بين النّجم والكوكب سبق أن قرّرها القرآن الكريم . جاء في سورة يونس[(١)] قول الحقّ جلّ وعلا : (هو الّذي جعل الشّمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السّنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلاّ بالحقّ . يفصّل الآيات لقوم يعلمون) إنّ ما يصدر عن الشّمس النّجم ضياء ، وإنّ القمر الكوكب يعكس ضياء الشّمس نورا . جاء في سورة نوح[(٢)] قول الحق جلّ وعلا (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً . وجعل القمر فيهنّ نوراً وجعل الشّمس سراجاً) وجاء في سورة الفرقان[(٣)] قول الحقّ جلّ وعلا: (تبارك الّذي جعل في السّماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً) وجاء في سورة النّبأ[(٤)] قول الحقّ جلّ وعلا: (وجعلنا سراجاً وهّاجا).

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة من سورة الأحزاب يجيء فيها عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم القول : (وسراجاً منيراً) وقد عرفنا أنّ السّراج بمعنى الشّمس، وأنّ المنير هو القمر، الّذي يعكس ضوء الشّمس نورا، فما الحكمة من مجيء القول:

---

(١) الآية ٥ .

(٢) الآية ١٥ و ١٦ .

(٣) الآية ٦١ .

(٤) الآية ١٣ .

(وسراجاً منيراً) وعدم مجيء القول: " وسراجاً مضيئًا" لأنّ الضوء هو الّذي يصدر عن الشّمس ، ولأنّ النّور هو الّذي يأتي من القمر؟

الحكمة من مجيء لفظة : (سراجاً) أنّ الآية الكريمة تريد أن تخلع على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم خير ما في الشّمس. إنّ الشّمس بفضل الله تعالى مصدر الدّفء والأشعّة والعافية ، وإنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بمثابة العافية للأبدان ، والصّحّة للأجسام ، فهو الأسوة الحسنة لكلّ مؤمن .

والحكمة من مجيء لفظة : (منيرا) أنّ الآية الكريمة تريد أن تخلع على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم خير ما في القمر . إنّ النّور الّذي يعكسه القمر يأتي منه النّفع الخالص ، والخير المحض ، ولا يأتي منه أدنى أذًى أبدا ، وأقلّ شرٍّ مطلقاً .

إنّا مَثَلاً :

قد سمعنا عن ضربة الشّمس لكن ● ما سمعنا عن ضربة الأقمار

وهكذا محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وسلّم . إنّه من حيث كونه مصدر كلّ خير والأسوة الحسنة للمؤمنين بمثابة الشّمس المصدر للطّاقة والحرارة والدّفء . وإنّه من حيث النّفع الخالص، والخير المحض ، بمثابة نور القمر،

الّذي يملأ العين لذّة وسرورا، والصّدر بهجة وحبورا.

وهكذا جمعت الآية الكريمة للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم خير ما في كلّ من الشّمس والقمر. قال تعالى: (يا أيّها النّبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. وبشّر المؤمنين بأنّ لهم من الله فضلاً كبيراً).

ز - (إنّ اللّه وملائكته يصلّون على النّبيّ).

جاء في الآية الكريمة السّادسة والخمسين من سورة الأحزاب قول الحقّ جلّ وعلا: (إنّ الله وملائكته يصلون على النّبيّ . يا أيّها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليما).

إنّ الصّلاة من الله تعالى على العبد ثناؤه عليه عند الملائكة[١] وإشاعة الذكر الجميل عنه[٢] وقيل: إنّ معنى ذلك أنّ الله يرحم النّبيّ[٣] وإنّ الصّلاة من الملائكة الدعاء[٤] عن ابن عبّاس: (إنّ الله وملائكته يصلّون على النّبيّ(يقول: يباركون النّبيّ [٥] والصّلاة من المؤمنين الدّعاء أيضاً. وذلك أنّ الصّلاة في كلام العرب من غير الله إنما هي دعاء[٦] يقول تعالى ذكره: يا أيّها الذين آمنوا ادعوا لنبيّ الله محمّد صلّى الله عليه وسلّم وحيّوه تحيّة الإسلام[٧] والمقصود من هذه الآية أنّ الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيّه عنده في الملأ الأعلى، بأنّه يثني عليه عند الملائكة المقرّبين، وأنّ الملائكة تصلّي عليه. ثم

---

(١) فتح الباري ٥٣٢/٨.

(٢) انظر تفسير الطّبري ٣١/٢٢.

(٣) تفسير الطّبري ٣١/٢٢.

(٤) فتح الباري ٥٣٢/٨.

(٥) تفسير الطّبري ٣١/٢٢ وفتح الباري ٥٣٢/٨.

(٦) تفسير الطّبري ٣١/٢٢.

(٧) تفسير الطّبري ٣١/٢٢.

أمر تعالى أهل العالم السّفلي بالصّلاة والتسّليم عليه، ليجتمع الثّناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً[(١)] .

تقرر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى يصلي على حبيبه صلّى الله عليه وسلّم، ويثني عليه عند الملائكة الأطهار ، ويذكره ذكراً جميلاً في الملأ الأعلى، وأنّ الملائكة الأطهار يثنون على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، ويباركون عليه، ويدعون له بالرّحمة، فعليكم أيّها المؤمنون أن تصلّوا على النّبيّ صلّى الله عليه وسلم في الصّلاة وفي غير الصّلاة، وتدعوا له بالرّحمة، وأن تسلموا عليه تسليماً في الصّلاة وفي غير الصّلاة.

جاء في صحيح البخاريّ[(٢)] عن كعب بن عُجرة رضي الله عنه، قيل يا رسول الله، أمّا السّلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصّلاة عليك؟ قال: قولوا اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى آل محمّد، كما صلّيت على إبراهيم إنّك حميدٌ مجيد. اللّهم بارك على محمّد وعلى آل محمّد، كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميدٌ مجيد.

والمراد بالسّلام ما علّمهم إيّاه في التّشهّد من

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٤٧/٦.

(٢) فتح الباري ٥٣٢/٨ حديث رقم ,٤٧٩٧

قـولـهم:السّــلام عليـك أيّهـا الـنّبـيّ ورحـمـة الله وبركـاته. والسّائل عن ذلك هو كعب بن عجرة نفسه[1]،

وفي غير الصّلاة قولوا: اللّهم صلّ وسلّم على محمّد [2]

(١) فتح الباري ٥٣٣/٨.

(٢) الجلالين.

حـ - (فلمّا قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها).

الجزئية الكريمة ذات علاقة بزواج المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بزينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها مطلّقة زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه، الّذي كان المصطفى صلّى الله عليه وسلّم قد تبناه، فزوّجه الله تعالى إيّاها من فوق سبع سماوات، من أجل القضاء على عادة العرب البغيضة في تنزيل المتبنَّى منزلة الابن من الصّلب. والآيات الكريمات التّاليات تتحدّث في هذه القضيّة. قال عزّ من قائل[1]: (وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً. وإذ تقول للّذي أنعم الله عَليه وأنعمت عليه أمْسكْ عليك زوجك واتق الله وتُخْفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى النّاس والله أحقّ أن تخشاه. فلما قضى زيدٌ منها وطراً زوّجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً. وكان أمر الله مفعولا. ما كان على النّبيّ منْ حَرَج فيما فَرَضَ الله له. سُنة الله في الّذين خَلَوْا من قَبْلُ وكَان أمر الله قدراً مقدورا. الّذين يُبلِّغون رسالات الله ويَخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله. وكفى بالله حسيبا. ما كان محمّدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم

(١) سورة الأحزاب ٣٦-٤٠.

النّبيين.وكان الله بكلّ شيئٍ عليماً).

ومـعنى الآيات الكريمات، والله تعـالى أعلم، ومـا كـان يصحّ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله تعالى وقضى رسوله صلّى الله عليه وسلّم أمـراً أن يكون لهم حـرّية القـبـول أو الرّفض. إنّ عليهم الامتثال والطّاعة المطلقة فقط. ويأتي على رأس قائمة المعنيين هنا زينب بنت جحش وأخوها عبد الله بن جحش ، رضي الله تعالى عنهما.

لقد أمـر الحق جلّ وعلا حبيبه صلّى الله عليه وسلّم أن يذهب إلى زينب رضي الله تعالى عنها، وذلك قبل نزول آية الحجاب،وأن يكلّمها شخصياّ، وهي البِكْر، في أن تقبل زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه، حِبّ رسول الله صلّى الله عيـه وسلم ومـتبنّاه، وأن ترْضى به زوجـاً لها. ظنّت زينب رضي الله تعالى عنها أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم جاء يخطُبُها لنفسه ففرحت[1] وحينما تبيّنت أنّ النّبيّ صلّى الله عليـه وسلّم جـاء يخطُبـهـا لزيد بن حـارثة رضي الله تعـالى عنه امـتنعت أوّل الأمر كما امـتنع أخـوها عبـد الله رضي الله تعالى عنه . فـبـينمـا المصطفى صلّى الله عليـه وسلّم وزينب رضي الله تعـالى عنهـا يتحـدّثان نزلت الآية الكريمة الّتي نحن بصددها ، وتلاها النّبيّ صلّى الله عليـه وسلّم فـأذعن كلّ من زينب وأخـيـهـا عـبـد الله رضي الله

(١) انظر هنا تفسير القرطبي ٥٢٦٨ .

تعالى عنهما لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلّى الله عليه وسلّم ، فتزوّج زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها .

ومعروفٌ أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب ، فما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم أمراً أن يكون لهم حرّية الاختيار بالقبول أو الرّفض ، إنّما عليهم الاستسلام التّامّ والرّضا المطلق . ومن يعص الله تعالى ويعص رسوله صلّى الله عليه وسلّم فقد ضلّ ضلالاً بيّنا .

واذكر يا محمّد إذ تقول لزيد بن حارثة رضي الله تعالى عنه الّذي أنعم الله تعالى عليه بنعمة الإسلام ، ومتابعة الرّسول عليه أفضل الصّلاة والسّلام(١) فدلّ على أنّه من أهل الجنّة ، علم ذلك قبل أن يموت(٢) وإذ تقول للّذي أنعمت عليه يا محمّد بالعتق من الرّق(٣) فقد كان من سبي الجاهليّة وهو غلام ، اشتراه في سوق عكاظ حكيم بن حزام لعمّته خديجة بأربعمائة درهم ، فلمّا تزوّجها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهبته له(٤) أعتقه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتبنّاه قبل البعثة فكان يدعى زيد بن

---

(١) تفسير ابن كثير ٤١٩/٦ .

(٢) تفسير القرطبي ٥٢٧٦ .

(٣) تفسير الطّبري ١٠/٢٢ وتفسير ابن كثير٤١٩/٦ .

(٤) الإصابة ٥٦٣/١ .

مـحـمّـد[1] حتىّ نزل قـول الحقّ جلّ وعـلا[2] : (ادعـوهم لآبائهم هـو أقسط عند الله)[3] وإذ تقـول يا مـحـمّـد للّذي أنعم الله تعالى عليه بالإسلام وأنعمت عليه بالعتق أمسك عليك زوجتك زينب بنت جحش ، واتّق الله تعالى في أمر طلاقها[4] .

لقـد كـانت سنّ زينب رضي الله تعـالى عنهـا حـينمـا تزوّجت زيد بن حـارثة رضي الله تعـالى عنه ستّاً وثلاثين سنة . فـمكثت رضي الله تعـالى عنهـا عند زيد رضي الله تعالى عنه قريباً من سنة أو فوقها ، ثمّ وقع بينهما[5] فجاء زيدٌ إلى رسـول الله صلّى الله عليـه وسلّم فـقـال : إنّ زينب تؤذيني بلسانها وتفعل وتفعل ! وإنّي أريد أن أطلّقها[6] عن أنس قال : جاء زيد بن حارثة يشكو. فجعل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: اتّق الله وأمسك عليك زوجك[7] .

وتُخْفى يا محمّد في نفسك ما الله تعالى مبديه ممّا أوحيت إليك من علم الغيب بأنّ زيداً سيطلّق زينب وبأنّ زينب ستكون إحدى أمّهات المؤمنين ، وتخشى النّاس يعني

---

(١) انظر الإصابة ٦٣/١ و ٥٦٤ .

(٢) سورة الأحزاب ٥ .

(٣) انظر فتح الباري ٥١٧/٨ حديث رقم ٤٧٨٢ .

(٤) الجلالين .

(٥) تفسير ابن كثير ٤١٩/٦ .

(٦) تفسير القرطبي ٥٢٧١ وانظر تفسير ابن كثير ٤١٩/٦ .

(٧) فتح الباري ٤٠٣/١٣ حديث رقم ٧٤٢٠ .

المنافقين ومن شاكلهم أن يقولوا تزوّج محمّدٌ مطلّقة متبنّاه خلافاً لعادة العرب الّذين يحرّمون ذلك الزّواج وينزّلون المتبنَّى منزلة الابن من الصّلب في تحريم زواج المتبنِّي مطلقة متبنّاه . والله تعالى أحقّ أن تخشاه وحده دون سواه. والمعروف أنّ الخشية مزيجٌ من الخوف والحبّ . عن عليّ بن الحسين بن عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ [1] أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان قد أوحى الله تعالى إليه أنّ زيداً يطلق زينب ، وأنّه يتزوّجها بتزويج الله إيّاها . فلمّا تشكّى زيدٌ للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم خُلُق زينب ، وأنّها لا تطيعه ، وأعلمه أنّه يريد طلاقها، قال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على جهة الأدب والوصيّة : اتّق الله في قولك وأمسك عليك زوجك ، وهو يعلم أنّه سيفارقها ويتزوّجها . وهذا هو الّذي أخفى في نفسه ، ولم يرد أن يأمره بالطّلاق ، لَمَا علم أنّه سيتزوّجها . وخشي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يلحقه قولٌ من النّاس في أن يتزوّج زينب بعد زيد ، وهو مولاه وقد أمره بطلاقها . فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشي النّاس في شئٍ قد أباحه الله له ، بأن قال: (أمْسِكْ) مع علمه بأنه يطلّق. وأعلمه أنّ الله أحقّ بالخشية، أي في كلّ حال [2]

(١) هذه الزّيادة من فتح الباري ٥٢٤/٨ .

(٢) تفسير القرطبي ٥٢٧٢ .

قال أنس: لو كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كاتماً شيئاً لكتم هذه[1] : (وتخفي في نفسك ما لله مبديه)[3]

فلما قضى زيدٌ من زينب وطراً وحاجةً وأرباً[3] وعاشرها معاشرة الأزواج، وطلّقها، وانقضت عدّتها، زوّجناكها من فوق سبع سماوات. قال العلماء: ولم يذكر الله عزّ وجلّ في القرآن باسم العَلَم من أصحاب نبيّنا وغيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم إلا زيداً في هذا الموضع من القرآن الكريم[4] وروى الإمام جعفر بن محمّد عن آبائه عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه لمّا أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ولا تجديد عقد ولا تقرير صداقٍ ولا شئٍ ممّا يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا. وهذا من خصوصياته صلّى الله عليه وسلّم، التي لا يشاركه فيها أحدٌ بإجماعٍ من المسلمين. ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتقول: زوّجكنّ آباؤكن وزوجني الله تعالى. أخرجه النّسائيّ عن أنس بن مالك[5]

---

(١) فتح الباري ٤٠٣/١٣ حديث رقم ٧٤٢٠ .

(٢) انظر فتح الباري ٤١١/١٣ وانظر ثمّة تخريج الحديث .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٢٠/٦.

(٤) تهذيب الأسماء واللّغات للإمام النووي ٢٠٢/١ وتفسير القرطبي ٥٢٧٦.

(٥) تفسير القرطبي ٥٢٧٥ وانظر فتح الباري ٤٠٣/١٣ حديث رقم ٧٤٢٠ و ٤٠٤/١٣ حديث رقم ٧٤٢١ . وسنن النّسائي ٨٠/٤ .

وقـد أكـرم الله تعـالى زينب بنت جـحش فكانت أمّـاً للمـؤمنين لأنّهـا رضـيت بما قـضى الله تعـالى به وقـضى رسـوله صلّى الله عليـه وسلّم، فـتـزوّجت زيداً رضي الله تعالى عنه. وقد أكرم الله تعالى زيداً رضي الله تعالى عنه فصار اسمه قرآناً يُتْلَى لأنّه رضي بما قضى الله تعالى به وقضى رسوله صلّى الله عليه وسلّم، فصـار يُدْعى زيد بن حارثة بعد أن كان يُدْعَى زيد بن محمّد.

لقد قضى الله تعالى بزواج محمّد صلّى الله عليه وسلّم بزينب بنت جحش مطلقة متبنّاه زيد بن حارثة لكيلا يكون على المؤمنين حَـرَجٌ في الزّواج بمطلّقـات من تبنّوهم لأنّ الدّعيّ غـيـر الابن من الصـلب، خـلافاً لعـادة الجـاهليّين الّذين ينزّلون الدّعيّ منزلة الابن من الصُّلب، فلا يسمحون للمـتبنِّي أن يتـزوّج مطلقـة مـتبنّاه، الّذي عـاشـر زوجـتـه معـاشـرة الأزواج، ونال حاجته منها. وكان أمر الله تعالى بالقضـاء على ظاهرة العرب في تنزيل المتبنَّى منزلة الابن من الصُّلب مفعولاً.

ويلاحظ أنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم يمتثل أمـر ربّه عزّ وجلّ فيتزوّج من زينب الثّيّب الّتي كانت آنذاك في الثّـامنة والثّـلاثين من عـمـرها، وهو صلّى الله عليـه وسلّم الّذي سـبق أن امـتـثل أمـر مـولاه عـزّ وجلّ فـذهـب وخطب زينب البكر الّتي كانت آنذاك في السّادسة والثّلاثين لزيد

بن حارثة. إنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم إنّما يفعل ما يأمره الله تعالى به.

ما كان على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم منْ إثم فيما أحلّ الله تعالى له من زوجات، ومنهنّ زينب رضي الله تعالى عنها. تلك هي سنّة الله تعالى في المرسلين الّذين مَضَوْا منْ قَبْل وكان لهم زوجات وكان لهم ذرّيّة. وكان أمر الله تعالى قضاءً مقضيّا. إنّهم رسل الله تعالى الّذين يبلّغون النّاس رسالات الله تعالى، ويخشونه، ولا يخشون أحداً إلاّ الله تعالى وحده دون سواه. وكفى بالله تعالى محاسباً لخلقه ومجازيا، مثيباً أو معاقبا.

ما كان محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم أبا أحدٍ من رجالكم أيّها النّاس، إنّه عليه الصّلاة والسّلام ليس أبا زيد بن حارثة وليس أبا أيِّ رجل آخر، فليس له عليه الصّلاة والسّلام ولدٌ ذكرٌ بلغ الحُلُم، فزينب رضي الله تعالى عنها هي مطلّقة زيد بن حارثة وليست مطلّقة زيد بن محمّد صلّى الله عليه وسلّم. إنّ محمّداً صلّى الله عليه وسلّم ما كان أبا أحدٍ من رجالكم ولكن كان رسول الله وخاتم النّبيّين. وكان الله تعالى بكلّ شيءٍ عليما، فليس يخفي عليه جلّ وعلا شئٌ في الأرض ولا في السّماء سبحانه.

ط - أحكامٌ خاصّةٌ به صلّى الله عليه وسلّم:

ممّا اتّسمت به سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة اشتمالها على مجموعة من الأحكام الخاصّة به صلّى الله عليه وسلّم. قال عزّمن قائل[١] :(يا أيّها النّبيّ إنّا أحللنا لك أزواجك اللّاتي آتيت أجورهنّ وما ملكت يمينك ممّا أفاء الله عليك وبنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللّاتي هاجرن معك وامرأةً مؤمنة إن وهبت نفسها للنّبيّ إن أراد النّبيّ أن يستنكحها خالصةً لك من دون المؤمنين . قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج . وكان الله غفوراً رحيماً . تُرْجى من تشاء منهنّ وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممّن عزلت فلا جناح عليك . ذلك أدنى أن تقرّ أعينهنّ ولا يَحْزنّ ويرضين بما آتيتهنّ كلّهنّ . والله يعلم ما في قلوبكم . وكان الله عليماً حليماً. لا يحلّ لك النّساء من بعد ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج ولو أعجبك حسنهنّ إلاّ ما ملكت يمينك . وكان الله على كلّ شيءٍ رقيباً) .

ينادي الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الأولى حبيبه صلّى الله عليه وسلّم , ويصفه بصفة النّبوّة ويقول له : إنّا حللنا لك أزواجك اللّاتي آتيتهنّ مهورهنّ ، وأحللنا لك ما ملكت يمينك ممّا أفاء الله تعالى عليك فملكتهنّ بالسّباء

---

(١) سورة الأحزاب ٥٠-٥٢ .

وصرن لك بفتح الله عليك من الفيء[١] كصفيّة بنت حُيَيّ فإنّه اصطفاها من سبي خيبر ثمّ أعتقها وجعل عتقها صداقتها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقيّة ، أدّى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شمّاس وتَزَوّجها[٢] وأحللنا لك بنات عمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك الّلاتي هاجرن معك بخلاف من لم يهاجرن[٣] أي لا يحلّ له منهنّ إلاّ من هاجر إلى المدينة[٤] والمعيّة هنا بمعنى الاشتراك في الهجرة لا في الصّحبة فيها ، فمن هاجر حلّ له ، كان في صحبته إذ هاجر أو لم يكن[٥] وأحللنا لك امرأةً مؤمنةً إن وهبت نفسها للنّبي بغير صداق[٦] إن أراد النّبيّ أن ينكحها فحلالٌ له أن ينكحها إذا وهبت نفسها له بغير مهر[٧] خالصةً أُخْلصَتْ لك من دون سائر أمّتك[٨] وخاصّةً خصّك الله تعالى بها وحدك دون سواك . قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم ، فلا تزوّج امرأةٌ إلاّ بوليّ وصداق عند شاهدي عدل ، ولا

---

(١) تفسير الطّبري ١٥/٢٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٣٣/٦ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير القرطبي ٥٢٨٩ .

(٥) تفسير القرطبي ٥٢٩٠ .

(٦) تفسير الطّبري ١٦/٢٢ .

(٧) تفسير الطّبري ١٦/٢٢ .

(٨) تفسير الطّبري ١٦/٢٢ .

يحلّ لهم من النّساء إلاّ أربع[1] وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم ، فإنّ جميعهنّ إذا كنّ مؤمنات أو كتابيّات لهم حلالٌ بالسّباء والتّسري وغير ذلك من أسباب المِلْك[2] لكيلا يكون عليك يا محمّد ضيقٌ وإثمٌ في نكاح من نكحت من النّساءِ المسمّيات في الآية الكريمة . وكان الله تعالى غفوراً لمن استغفر الله تعالى من ذنبه ، رحيماً أن يعذّب من تاب وأناب.

ومعروفٌ أنّ الحقّ جلّ وعلا زوّج محمّداً صلّى الله عليه وسلّم زينب بنت جحش رضي الله عنها ، بمعنى أنّه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا وليٍّ ولا مهرٍ ولا عقد ولا شهود من البشر[3] .

وفي الآية الكريمة الثّانية يخاطب الحقّ جلّ وعلا حبيبه صلّى الله عليه وسلّم ويذكر له شيئاً ممّا خصّه عليه الصّلاة والسّلام به من إسقاط واجب القَسْم للزّوجات في حقّه صلّى الله عليه وسلّم . تقول الآية الكريمة : تؤخّر يا محمّد من تشاء من زوجاتك فلا تجامعها ، وتضمّ إليك من تشاء فتجامعها . ومَنْ طَلَبْتَ من زوجاتك ممّن عزلتهنّ من القسمة فلا بأس عليك في ذلك ولا حرج.

ذلك التّخيير لك في القَسْم وعلم أمّهات المؤمنين

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/٢٢ .

(٢) تفسير الطّبري ١٨/٢٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٢٠/٦ .

رضـوان الله تعـالى عليـهنّ أنّ الله تعـالى قـد وضع عنك الحـرج في القَسْم أقـرب أن تقـرّ أعـينهـنّ ، وأدنى أن تمـلأ البـهـجـة قلـوبهنّ ، والسّعـادة نفـوسـهـنّ حـينمـا يعلمن أنّك التـزمت بالقَسْم بينهنّ بباعث الخلق العظيم الّذي خصّك عزّ وجلّ به ، وأنفى للحـزن عنهنّ ، وأحـرى بهنّ أن يرضـين بما أعطيتهنّ كلهنّ من عَدْل في القسم .

والله سبحانه وتعالى يعلم ما في قلوبكم أيّها الأزواج من ميل إلى إحدى الزّوجات لا خيار لكم فيه ولا سلطة لكم عليه.

إنّ ذلك الميل القلبيّ معفوٌّ عنه ، وعليكم وراء ذلك العدل فيـمـا لكم سلطة عليـه ، وذلك بالعـدل بين الزّوجـات في القَسْم والنفقة ولطف المعاملة ، وما إلى ذلك . وكان الله تعالى عليماً بحقائق نواياكم وأقوالكم وأفعالكم ، حليماً لا يعاجلكم العقوبة ، فالحذر أن تظنّوا الإمهال إهمالاً أيّها الظّالمون .

وفي الآية الكريمة الثّالثة يقول الحقّ جلّ وعلا لحبيبه صلّى الله عليه : لا يحلّ لك يا محمّد النّساء بعد التّسع الّلاتى اخترن الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم والدّار الآخرة حينما خيرتهنّ بين ما اخترن وبين نعيم الدّنيا الزّائل . ولا يحلّ لك يا محمّد أن تستبدل بهن من أزواج بأن تطلّق واحدةً مَثَلاً وتتزوّج بدلها أخرى ، ولو

أعجبك حسن اللاتي أردت أن تتزوّجهنّ ، إلاّ ما ملكت يمينك من الإماء ، فمن حقّك أن تتسرّى بمن شئت منهنّ .
وقد ملك صلّى الله عليه وسلّم بعدهنّ مارية وولدت له إبراهيم ومات في حياته[1] وكان الله تعالى على كلّ شيء حفيظا .

روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: ما مات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى أحلّ الله له النّساء[2] ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوّج لتكون المنّة للرّسول صلّى الله عليه وسلّم عليهنّ[3] .

وإنّ أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ حينما لم يردن الحياة الدّنيا وزينتها وأردن الله تعالى ورسوله والدّار الآخرة فقصر الحقّ جلّ وعلا المصطفى صلّى الله عليه وسلّم عليهنّ قد ترجمن إلى عمل معنى قول الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة السّادسة من السّورة الكريمة : (النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم) .

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٣٨/٦ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٣٨/٦ .

(٢)

من نعوت

زوجات المصطفى صلّى الله عليه وسلّم

أ - زوجات المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أمهات المؤمنين :

جاء في الآية الكريمة السّادسة من سورة الأحزاب قول الحقّ جلّ وعلا : (النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم . وأزواجه أمّهاتهم . وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً . كان ذلك في الكتاب مسطوراً)

ومعنى القول : (وأزواجه أمّهاتهم) وأزواج المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بمنزلة أمّهات المؤمنين اللّائي ولدنهم، أي في الحرمة ، والاحترام ، والإكرام ، والتّوقير، والإعظام، ولكن لا تجوز الخلوة بهنّ ، ولا ينتشر التّحريم إلى بناتهنّ وأخواتهنّ بالإجماع[1] وهكذا نزّل الحقّ جلّ وعلا زوجات المصطفى صلّى الله عليه وسلّم منزلة الأمّهات على الحقيقة في بعض الأحكام ، ببركة اقترانهنّ ، زوجات طاهرات طيّبات ، بالمصطفى صلّى الله عليه وسلّم.

وحرمة زواج المؤمنين بزوجات المصطفى صلّى الله عليه وسلّم لأنّهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ بمنزلة الأمّهات الحقيقيّات في هذا الجانب قد عمّقها هذا القول من الآية الكريمة الثّالثة والخمسين في سورة الأحزاب : (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً . إنّ ذلكم كان عند الله عظيماً) .

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/٣٨١ .

وهكذا تكون زوجات النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمّهات للمؤمنين بأمر الله تعالى ، ولا تكون الزّوجة المظاهر منها أمّاً على الحقيقة بأمر الله تعالى أيضاً .

ب - زوجات المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أسوةٌ حسنة للمؤمنات:

من الآيات الكريمة الّتي يتبيّن منها و يتأكّد أنّ أمّهات المؤمنين الأسوة الحسنة للمؤمنات الآياتُ في سورة الأحزاب من الثّامنة والعشرين إلى الخامسة والثّلاثين. قال عزّ من قائل: (يا أيّها النبيّ قل لأزواجك إن كنتنّ تردن الحياة الدّنيا وزينتها فتعالَيْن أمتعكنّ وأسرحكنّ سراحاً جميلاً. وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدّار الآخرة فإنّ الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً. يا نساء النّبيّ من يأت منكنّ بفاحشةٍ مبيِّنة يضاعف لها العذاب ضعفين. وكان ذلك على الله يسيراً. ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرّتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً. يا نساء النّبيّ لستنّ كأحدٍ من النّساء. إن اتّقيتنّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الّذي في قلبه مرضٌ وقلن قولاً معروفاً.وقَرْن في بيوتكنّ ولا تبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزّكاة وأطعن الله ورسوله. إنّما يريد الله ليُذهِب عنكم الرِّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا. واذكرن ما يُتْلَى في بيوتكنّ من آيات الله والحكمة. إنّ الله كان لطيفاً خبيراً. إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصّادقين والصّادقات والصّابرين والصّابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدّقين والمتصدّقات والصّائمين والصّائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذّاكرين الله كثيرا

والذّاكرات أعدّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً).

وقد جاء في مناسبة نزول الآيات الكريمات عموماً[1] نزول الآيتين الأوليين خصوصا[2] ما يُفْهَمُ منها أنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بعد أن نصره الله تعالى في غزوة الأحزاب نصراً مؤزَّراً، وعلى يهود بني قريظة الّذين انتقم الله تعالى منهم أشدّ الانتقام، وأصبحت كلمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الأولى في جزيرة العرب، رغب زوجاته صلّى الله عليه وسلّم أن يكون لهنّ حظّهنّ من الدّنيا على غرار بنات كسرى وقيصر الّلاتي كنّ في الحُلِيّ والحُلَل، الإماء والخَوَل. ولم يكن في بيوت المصطفى صلّى الله عليه وسلّم شئٌ من حطام الدّنيا، ولم يكن عليه الصّلاة والسّلام يدّخر شيئاً. ورُوي أن أزواجه صلّى الله عليه وسلّم كنّ قد تغايرن عليه صلّى الله عليه وسلّم فهجرهن شهرا[3] أو تسعاً وعشرين[4] ثمّ نزل التّخيير لهنّ من الله تعالى فاخترن الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم والدّار الآخرة وتركن الحياة الدّنيا وزينتها، رضي الله تعالى عنهنّ وأرضاهنّ.

ومعنى الآيات الكريمة، والله تعالى أعلم، يا أيّها النّبيّ

---

(١) البحر المحيط ٢٢٧/٧ .

(٢) انظر فتح الباري ٥١٩/٨ حديث رقم ٤٧٨٥ و ٥٢٠ حديث رقم ٤٧٨٦ .١ .

(٣) تفسير الطّبري ١٠٠/٢١ .

(٤) تفسير القرطبي ٥٢٤٥ .

الكريم قل لأزواجك أمّـهـات المؤمنـين رضـوان الله تعـالى عليهنّ، إن كنتنّ تُرِدْنَ الحياة الدّنيا الفانية، وزينتها الزّائلة، وزهرتها الذّابلة، فَتعالين معزّزات مكرّمات ، أعطيكن متعة الطّلاق الّتي فـرضـهـا الله تعـالى على الأزواج، وأطلّقكنّ طلاقاً جميـلاً كما أذن الله تعالى به، وأدّب به عباده. وإن كنتن تردن رضا الله تعالى، ورضا رسوله صلّى الله عليه وسلّم، ونعيم الدّار الآخرة، فإنّ الله تعالى أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً في جنّات النّعيم.

وقـد اخـتـرن كلّ الزوجـات الطّاهـرات التّسع، ابتـداءً بعـائشـة رضي الله عنهـا، وآثرن رضـا الله تعـالى ورضـا رسوله صلّى الله عليه وسلّم والدّار الآخرة. وقد رضي الله تعـالى عنهنّ وشكرهـنّ على ذلك فـقـال[1] :(لا يحل لك النّسـاء من بعـد ولا أن تبـدّل بهنّ من أزواجٍ ولو أعـجـبك حسنهنّ) فقصره الله عليهنّ وهنّ التّسع اللّاتي اخترن الله ورسـوله[2] وروى أنّ النّبيّ صلّى و الله عليـه و سلّم بدأ بعـائشـة رضي الله تعالى عنها، وكـانت أحبّـهنّ إليه. فلمّا اختـارت الله ورسـوله والدار الآخـرة رؤي الفـرح في وجـه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فتتابعن على ذلك[3] .

وبسبب المنزلة الرّفيعة عند الله تعالى لأمّهات المؤمنين

---

(١) سورة الأحزاب ٥٢ .

(٢) تفسير الطّبري ٢١/١٠٠ .

(٣) تفسير الطّبري ٢١/١٠٠ .

رضوان الله تعالى عليهنّ كانت لهنّ معاملةٌ خاصّةٌ في الثّواب والعقاب. إنّ الحقّ جل وعلا ينادي نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ويقول لهنّ: يا نساء النبيّ محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم ، من يأت منكنّ، على سبيل الافتراض، بفاحشةٍ واضحةٍ من نشوز وسوء خلق، فإنّ العذاب يضاعف في حقّها. وكان العذاب الشّديد يسيراً على الله تعالى.

أمّا من يلزم طاعة الله تعالى منكنّ ويتّبع رسوله صلّى الله عليه وسلّم وتعمل صالحا بمقياس الإسلام، فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يؤتيها أجرها مضاعفاً، وأعدّ الله تعالى لها رزقاً كريماً في جنات النّعيم.

يا نساء النّبيّ محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، إذا تُقُصِّيتَ أمة النّساء جماعةً لم توجد منهنّ جماعةٌ واحدةٌ تساويكنّ في الفضل والسّابقة[1] وليست الواحدة منكنّ كأي واحدة من النّساء المسلمات[2] بسبب عظيم الفضل للواحدة منكنّ ورفيع المنزلة.

إن اتّقيتنّ الله تعالى حقّ تقاته ، وذلك هو المأمول منكنّ والواقع ، فلا تُلنّ القول لغير المحارم فيطمع الّذي في قلبه مرض النّفاق وشهوة الزّنا. وقلن قولاً معروفاً شرعاً وعُرْفاً

(١) الكشّاف ٥٣٧/٢ .

(٢) انظر هنا البحر المحيط ٢٢٨/٧ .

وعـقـلا. والْزَمْنَ بيـوتكنّ ولا تخـرجن منهـا إلاّ لحـاجـة وضرورة. ولا تبدين زينتكنّ ولا تظهرن محاسنكنّ للرّجال الّذين لا يحلّ لكنّ إبداء الزّينة لهم،وتحاشين أن تفعلن فعل نساء الجاهليّة الموغلة في الجهل والفترة السّابقة على الإسلام، حينما كانت الواحدة منهنّ تتعمّد أن تبدو جميلةً في عيون الرّجال الأجانب. وكما كان التّبرّج خارج البيوت كان داخلها. ويؤمرن رضوان الله تعالى عليهنّ أن يُقِمن الصّلاة المفروضة وتلحقها النّوافل، وأن يؤتين الزّكاة وتلحقها الصّدقات ، وأن يُطِعْنَ الله تعالى ورسوله صلّى اله عليه وسلّم طاعةً مطلقة.

إنّ كلّ هذه الأوامر الّتي أمرهنّ الله تعالى بها والنّواهي الّتي نهاهنّ الله تعالى عنها لأنّ الله تعالى يريد أن يذهب عنكم كلّ سوء يا أهل بيت محمّد صلّى الله عليه وسلّم رجالاً ونساء، ويريد أن يطهّركم من كلّ دنسٍ تطهيراً.

واذكرن يا نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بقلوبكنّ وألسنتكنّ وجوارحكنّ ما يُتْلَى ويُقْرأ في بيوتكنّ من آيات الله تعالى البيّنات وسنّة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم المبيّنة للقرآن الكريم. إنّ الله تعالى كان ذا لطف بكنّ إذ جعلكنّ في البيوت الّتي تُتْلَى فيها آياته والحكمة، خبيراً بكنّ إذ اختاركنّ لرسوله أزواجا[١] .

(١) تفسير الطبري ٨/٢٢ .

ومـعـروفٌ أنّ أمّـهـات المؤمنين هنّ الأسـوة الحـسنة للمؤمنات، وأنّ كلّ هذه الأوامر والنّواهي كنّ خير من التزم بها رضوان الله تعالى عليهنّ.

ثمّ تأتي الآية الكريمة الّتي تشتمل على مجموعة من النّعوت الّتي يتّسم بها المؤمنون والمؤمنات، والّتي تعتبر تعميقاً لمعاني أركان الإسلام الخمسة. وممّا جاء في سبب نزولها ما رواه الإمام أحمد والنَّسائيّ وغيرهما أنّ أمّ سلمة زوج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قالت: قلت للّنبيّ صلّى الله عيه وسلّم: ما لنا لا نُذْكَر في القرآن كما يُذكر الرّجال؟ قالت: فلم يَرُعْنى منه ذات يومٍ إلاّ ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرّح شعري، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرةٍ من حُجر بيتي، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: يا أيّها النّاس، إنّ الله يقول:(إنّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) إلى آخر الآية[١] .

والمعنى، والله تعالى أعلم، إنّ المسلمين والمسلمات الّذين طبّقوا أركان الإسلام الخمسة ، والمؤمنين والمؤمنات الّذين طبقوا أركان الإيمان السّتة، وهي: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره[٢] والقانتين والقانتات الّذين يطيلون القيام والدّعاء خاشعين لله تعالى في الصّلاة ، أهم أركان الإسلام في العبادات

(١) تفسير ابن كثير ٤١٣/٦ .

(٢) صحيح مسلم ١٥٧/١ وبتحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ٣٧/١ حديث رقم .

البدنيّة، والصّادقين والصّادقات في الأقوال والأفعال والنّيات، وبخاصّةٍ مع الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم، والصّابرين والصّابرات على البلاء و الطّاعات وعن المعاصي، والخاشعين والخاشعات الّذين يجمعون بين الخوف من الله تعالى والحبّ له. ويتجلّى الخشوع في الصّلاة في المقام الأوّل.والخشوع في الصّلاة بمعنى التذلّل لله تعالى فيها بطاعته [١] والمتصدّقين والمتصدّقات، ومعروفٌ أنّ الّذين يتصدّقون يؤتون الزّكاة المفروضة ، وهذا مفهومٌ ضمنا، والصّائمين والصّائمات، ويأتي بعد صيام شهر رمضان وهو الرّكن الرّابع من أركان الإسلام، صيام النّفل، والحافظين فروجهم والحافظات عمّا حرّم الله تعالى،والذّاكرين الله تعالى ذكراً كثيراً في كلّ الأوقات والأحوال، بالقلوب والألسنة والجوارح، إنّ الّذين تتحقّق فيهم وفيهنّ هذه النّعوت بفضل الله تعالى، أعدّ عزّ وجلّ لهم مغفرةً لذنوبهم، وأجراً عظيماً على الحسنات الّتي عملوها، والخيرات الّتي سارعوا إليها.

---

(١) تفسير الطّبري ٢/١٨ .

جـ- (وإذا سألتموهنّ متاعاً فاسألوهنّ من وراء حجاب)

جاء في الآيتين الكريمتين الثالثة والخمسين والرّابعة والخمسين من سورة الأحزاب قول الحقّ جلّ وعلا: (يا أيّها الّذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النّبيّ إلا أن يؤذن لكم إلى طعامٍ غير ناظرين إناه ولكن إذا دُعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث. إنّ ذلكم كان يؤذي النّبيّ فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحقّ. وإذا سألتموهنّ متاعاً فاسألوهنّ من وراء حجاب. ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهنّ . وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً. إنّ ذلكم كان عند الله عظيماً. إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإنّ الله كان بكلّ شئٍ عليماً).

سبب النّزول

روى البخاريّ في صحيحه[1] عن أنس قال : قال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : قلت يا رسول الله ، يدخل عليك البَرّ والفاجر ، فلو أمَرْت أمّهات المؤمنين بالحجاب . فأنزل الله آية الحجاب . وروى كذلك[2] عن أنسٍ رضي الله عنه قال : بُني على النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بزينب بنت جحش بخُبْزٍ ولحم . فأرْسِلْتُ على الطّعام داعياً ، فيجيء قومٌ فيأكلون ويخرجون ، ثمّ يجيء قومٌ يأكلون

---

(١) فتح الباري ٥٢٧/٨ حديث رقم ٤٧٩٠ .

(٢) فتح الباري ٥٢٧/٨ حديث رقم ٤٧٩٣ .

ويخرجون . فدعوتُ حتّى ما أجد أحداً أدعو، فقلت: يا نبيّ الله ما أجد أحداً أدعوه ، فقال : فارفعوا طعامكم . وبقي ثلاثة رهط يتحدّثون في البيت ، فخرج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فانطلق إلى حجرة عائشة فقال : السّلام عليكم أهل البيت ورحمة الله . فقالت : وعليك السّلام ورحمة الله . كيف وجدت أهلك ، بارك الله لك . فتقرّى[1] حُجَر نسائه كلّهنّ . يقول لهنّ كما يقول لعائشة ، ويقلن له كما قالت عائشة . ثمّ رجع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فإذا ثلاثةٌ من رهطٍ في البيت يتحدّثون . وكان النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم شديد الحياء . فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة ، فما أدري آخبرته أو أُخْبِر أنّ القوم خرجوا . فرجع حتّى إذا وضع رجله في أسْكُفَّة[2] البَاب داخلةً وأخرى خارجة ، أرخى السّتر بيني وبينه ، وأنزلت آية الحجاب.

وجاء في الحديث الّذي رواه مسلم والتّرمذيّ والنّسائي[3] ما يفيد أنّ آية الحجاب الكريمة نزلت معها الآية الكريمة التالية[4] وجاء في ذلك الحديث[5] : "وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلّم الّتي دخل بها معهم مولّيةً وجهها إلى الحائط" .

---

(١) فتقرّى بفتح القاف وتشديد الرّاء : تتبّع الحجرات واحدةً واحدة .

(٢) الأُسكفّة : خشبة الباب الّتي يوطأ عليها .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٦/٤٤٢ و ٤٤٣ .

(٤) تفسير ابن كثير ٦/٤٤٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ٦/٤٤٢ .

ومعنى الآية الكريمة ، والله تعالى أعلم ، يا أيّها الّذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلاّ أن يؤذن لكم وتُدْعَوْن إلى طعام . فإذا دعاكم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى طعامٍ فأتوا في الوقت المناسب لا أن تأتوا مبكّرين منتظرين نضج الطّعام . إنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إذا دعاكم إلى طعام فادخلوا في الوقت المناسب ، فإذا تناولتم الطّعام فغادروا المكان وانتشروا في أماكنكم وفي أرض الله تعالى ، ولا تجلسوا بعد تناول الطّعام يستأنس بعضكم بالحديث إلى بعض . إنّ ذلكم الاستئناس بالحديث بعد تناول الطّعام كان يؤذى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيستحيى منكم أن يطلب منكم المغادرة ، رغم المشقّة الّتي كان يعانيها عليه الصّلاة والسّلام ، وقد عرفنا أنّ زينب رضي الله تعالى عنها كانت مولّية وجهها إلى الحائط في أثناء استئناس الرّهط الثّلاثة بالحديث . وكذلك يؤذى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أن تأتوا مبكّرين قبل نضج الطّعام .

إنّ الله سبحانه وتعالى لا يستحيي من الحقّ أن يعلنه ، وآداب المجالس أن يبيّنها .

وإذا سألتم أيّها المؤمنون أمّهات المؤمنين ونساء المؤمنين متاعاً تنتفعون به فاسألوهنّ من وراء حجاب ، ومن خلف سِتر ، ولا تدخلوا عليهنّ البيوت . إنّ سؤالهنّ المتاع من وراء

حجابٍ أطهر لقلوبكم تجاه النّساء ، وأطهر لقلوبهنّ تجاه الرّجال .

وما كان أيّها المؤمنون وما يصحّ لكم ولا يصلح أن تؤذوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أيّ صورة من الصّور ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده مطلقاً ، لأنّهنّ رضوان الله تعالى عليهنّ أمّهات المؤمنين . ولا يحل للرّجل أن يتزوّج أمّه. إنّ إيذاءكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ونكاحكم أزواجه من بعده ذنبٌ عظيمٌ عندا لله تعالى وإثم كبير .

إن تبدوا أيّها المؤمنون وتظهروا بألسنتكم شيئاً ممّا تخفيه قلوبكم وتستره ضمائركم ، أو تخفوه في أعماق نفوسكم ، من خير أو شرّ ، فإنّ الله سبحانه وتعالى كان بكلّ شيء عليماً ، وسيثيب المحسن ، وسيعاقب المسيء . فعليكم أيّها المؤمنون ألاّ تؤذوا رسول الله صلّى الله عليم وسلّم في أيّ صورة من الصّور، وعليكم ألا تفكّروا مطلقاً في الزّواج بإحدى زوجات المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، أمّهات المؤمنين ، رضوان الله تعالى عليهن أجمعين .

وواضحٌ أنّ الحجاب هنا خارجيّ ، وهو الّذي يفصل بين الرّجال والنّساء ، ويحول بين الرّجال أن يروا النّساء ، والنّساء أن يرين الرّجال .

وسورة الأحزاب الكريمة أمرت وراء ذلك المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بأن يأمر أزواجه وبناته رضوان الله

تعالى عليهنّ ونساء المؤمنين بأن يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ وأن يسترن جميع أبدانهنّ بثيابهنّ . جاء في الآية الكريمة التّاسعة والخمسين قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿يا أيّها النّبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ. ذلك أدنى أن يُعْرَفن فلا يؤذين . وكان الله غفوراً رحيماً﴾

تنادي الآية الكريمة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم وتأمره أن يقول لزوجاته أمّهات المؤمنين ولبناته رضوان الله تعالى عليهن ولنساء المؤمنين يدنين على جميع أجسادهنّ من ثيابهنّ ، ويسترن جميع أبدانهنّ بجلابيبهنّ . إنّ ذلك السّتر لجميع البدن ، والإرخاء للثّوب على جميع الجسد ، أدنى أن يُعْرَفن أنّهنّ حرائر، وأقرب أن يُعلم أنّهن عفائف ، فلا يؤذيهنّ من في قلوبهم مرض النّفاق وشهوة الزّنا . وكان الله سبحانه وتعالى غفوراً لما سلف منهنّ منْ عدم إدناء الثّياب على أجسادهنّ ، رحيماً بهنّ أن يعاقبهنّ بعد أن تُبْنَ إلى الله تعالى توبةً نصوحاً فأدنين عليهنّ من جلابيبهنّ وسترن جميع أبدانهنّ .

ولمّا كان للجلباب عَلاقةٌ بالزّينة الظّاهرة للمرأة ، وكانت سورة النّور المدنيّة الكريمة[(١)] قد تحدّثت عن زينة المرأة وأمرت المرأة بما أمرت به الرّجل من غضّ البصر وحفظ

(١) الإتقان ١/٤٣ .

الفرج فإنّا نودّ أن نقف قليلاً عند هذه المعاني .

جاء في الآيتين الكريمتين الثّلاثين والحادية والثّلاثين من سورة النّور الكريمة قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم . إنّ الله خبيرٌ بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها وليضربن بخُمُرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا لبعولتهنّ أو آبائهنّ أو آباء بعولتهنّ أو أبنائهنّ أو أبناء بعولتهنّ أو إخوانهنّ أو بنى إخوانهنّ أو بني أخواتهنّ أو نسائهنّ أو ما ملكت أيمانهنّ أو التّابعين غير أولي الإربة من الرّجال أو الطّفل الّذين لم يظهروا على عورات النّساء. ولا يضربن بأرجلهنّ ليعلم ما يخفين من زينتهنّ . وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون لعلّكم تفلحون﴾

والمعنى ، والله تعالى أعلم ، قل يا محمد للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ، ويكفّوا من نظرهم إلى ما قد نهاهم الله تعالى عن النّظر إليه ، ويحفظوا فروجهم عن ارتكاب ما لا يحلّ لهم فعله بها . إنّ الله سبحانه وتعالى خبيرٌ بما يصنعون ، وقد أحاط علماً بما يسرّون ويعلنون .

وقل يا محمّد للمؤمنات يغضضن من أبصارهنّ ويمتنعن من النّظر إلى ما نهاهنّ الله تعالى عن النّظر إليه ، ويحفظن فروجهنّ عن ارتكاب ما لا يحلّ لهنّ فعله بها ، ولا

يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها . وهذه الزّينة الظّاهرة مباحٌ إبداؤها لكلّ النّاس من المحارم والأجانب .

ومن العلمــاء من ذهب إلى أنّ المراد بالزّينة الظّاهرة الثّياب، ومنهم من ذهب إلى أنّ المراد بها الوجه والكفّان .

والمؤمنات مأموراتٌ بأن يضربن بخمرهنّ على جيوبهنّ ، وأن يلقين مــا يغطّين به رءوســهنّ ويســدلنه على الموضع المقطوع من (الفستان) الّذي يدخلن منه رءوسهنّ ، فهذا هو معنى الجيب أساساً ، فهو من الجَوْب ، بمعنى القطع . وحينما تسدل المؤمنة خمارها على الجزء المقطوع من عنق فستانها لا يبدو شيءٌ من عنقها ولا صدرها ولا شعرها .

ولا يبدي المؤمنات زينتهنّ الباطنة إلاّ لأزواجهنّ ، أو آبائهنّ، أو آباء أزواجهنّ ، أو أبنائهنّ ، أو أبناء أزواجهنّ ، أو إخوانهنّ ، أو بنى إخوانهنّ ، أو بنى أخواتهنّ ، أو نسائهنّ ، أو مــا ملكت أيمانهنّ من العبيــد والإمــاء المسلمــات والكتابيّات[(١)] أو الّذين يتبعونكم لطعام يأكلونه عندكم ممّن لا أرب له في النّساء من الرّجال ولا حاجة به إليهنّ ولا يريدهنّ[(٢)] أو الطّفل الّذين لم يكشفوا عن عورات النّساء بجماعهنّ فيظهروا عليها بسبب صغرهم[(٣)]

---

(١) تفسير القرطبي ٤٦٢٥ .

(٢) تفسير الطّبرى ٩٥/١٨ .

(٣) انظر هنا تفسير الطّبري ٩٧/١٨ .

والمؤمنات منهيّات أن يضربن الأرض بأرجلهنّ حينما يمشين ليُعْلَم ما يخفين من زينتهنّ وليُسْمَع أصواتَ خلاخيلهنّ . وتوبوا إلى الله تعالى جميعاً أيّها المؤمنون توبةً نصوحاً ، لعلّكم تفوزون بدخول جنّات النّعيم .

وليس بخاف تفاوت ما تبديه المؤمنة من زينتها الباطنة تبعاً لتفاوت هذه الفئات في المرتبة . إنّه لا حدود لما تبديه المرأة لزوجها من زينتها الباطنة . وإنّ ما تبديه المؤمنة من زينتها لوالدها -مثلاً- يختلف عمّا تبديه لولد زوجها . وهكذا . وقد بيّن العلماء الأجلاّء كلّ ذلك بجلاء تامّ . وقد كان الحجاب الّذي صان الحقّ جلّ وعلا به المرأة المؤمنة ولا زال غرضاً لأعداء الله تعالى وأعداء المؤمنين والمؤمنات، بقصد إفساد المرأة المسلمة بعد أن أفسدوا المرأة غير المسلمة . وبإذن الله تعالى سوف يرتدّ كيدهم عليهم ، ويحيق مكرهم بهم. وحول هذه المعاني قلت قصيدةً بعنوان:

الحجاب

مسكينةٌ أوهموها	بأن يدوم الشّبابُ
مسكينةٌ أقنعوها	بأن تقصّ الثّياب
مسكينة مزّقوها	ما بين ظُفْر ونابْ
لو كان في القلب خوفٌ	من ربّ يوم الحساب

أو كان في النّفس شوقٌ إلى جزيل الثواب

لكان طهرٌ وحبٌّ وعفّةٌ في الصِّحاب

وعشٌّ طهر ودفء تهفو إليه الكَعاب

ماذا دهى القومَ إنّى أرى قطيع الذّئاب

أرى لساناً تدلّى رغم الهوى والشّراب

الماء ملْحٌ أجاجٌ وغصّة بل عذاب

وليس عذباً فراتا وليس بابن السّحاب

ما أدرك القوم ماءً بل أمسكوا بالسّراب

ومن شرور البلايا ومن عجيب العُجاب

أن ينكروا طهر ثوبٍ أن يهزءوا بالحجاب [1]

---

(١) الموسم الثّقافي لكلّية اللّغة العربيّة للعام الدّراسي ١٤١٨ - ١٤١٩هـ . ص ٣٤٥ جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة .

(٣)

من نعوت المؤمنين

أ- (من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه)

ممّا جاء في نعوت المؤمنين قول الحقّ جلّ وعلا[(١)] :

﴿ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلاّ إيماناً وتسليماً . من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً . ليجزي الله الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم . إنّ الله كان غفوراً رحيماً﴾ .

والمعنى ، والله تعالى أعلم ، ولمّا رأى المؤمنون ، الّذين لهم في المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أسوةٌ حسنةٌ ، وبخاصّة في مجال الجهاد في سبيل الله تعالى ، وأبصروا الأحزاب من قريش وأحابيشها ، وغطفان وحلفائها قالوا : هذا ما وعدنا الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم من الابتلاء والنّصر[(٢)] وصدق الله تعالى وصدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلاّ إيماناً بالله وتسليماً لقضائه وأمره ، ورزقهم به النّصر والظّفر على الأعداء[(٣)] .

من المؤمنين رجالٌ بلغوا الغاية في الرّجولة والبطولة،

---

(١) سورة الأحزاب الآيات/٢٢-٢٤ .

(٢) الجلالين وانظر -مثلاً- الآية الكريمة ٢١٤ من سورة البقرة .

(٣) تفسير الطّبري ٢١/٩١ .

والنّهاية في الشّهامة والمروءة . وهؤلاء الشّجعان الأفذاذ صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه من بذل النّفس والنّفيس في سبيله عزّ وجل ، فمنهم من قضى نحبه ، ووفى بنذره وعهده[1] ولقى ربّه عزّ وجلّ . وكأنّ الموت في سبيل الله تعالى العهد الّذى قطعه على نفسه فعمل جاهداً من أجله ، حتّى لقي الله تعالى شهيداً سعيداً .

ومن هؤلاء الشّهداء السّعداء الّذين وفَوْا بنذرهم فصدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه أنس بن النّضر الّذي نزلت فيه الآية الكريمة[2] وفي أمثاله من الأوفياء . روى البخاريّ في صحيحه[3] عن أنس رضي الله عنه ، أنّ عمّه غاب عن بدر فقال : غِبْت عن أوّل قتال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، لئن أشهدني الله مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لَيَرينّ الله ما أجِدُّ . فلقي يومَ أحد ، فهُزم النّاس فقال : اللّهمّ إني أعتذر إليك ممّا صنع هؤلاء ، يعني المسلمين ، وأبرأ إليك ممّا جاء به المشركون . فتقدّم بسيفه، فلقي سعد بن معاذ فقال : أين يا سعد؟ إنّى أجد ريح الجنّة دون أُحد . فمضى فقُتل . فما عُرِف حتىّ عَرَفَتْه أخته بشامة ، أو ببنانه، به بضعٌ وثمانون ، من طعنة ، وضربة ، ورمية بسهم.

---

(١) انظر تفسير الطّبري ٢١/٩١ .

(٢) أسباب النّزول ٤١٠ .

(٣) فتح الباري ٧/٣٥٤ حديث رقم ٤٠٤٨ .

ومن هؤلاء الرّجـال الأبطال من هـو في ميـدان الجـهـاد في سـبـيل الله تعـالى ينتظر دوره فـي نيل الشّـهـادة والظّفـر بالسّعادة . ومـا بدّل هؤلاء الرّجال تبـديلاً ، ومـا نكصـوا عن ارتياد حياض الموت ، ووفوا بنذرهـم وعهدهم والميثاق الّذي أخذوه على أنفسهم .

ليـجـزي عـزّ وجلّ الصّـادقين من المؤمنين المجـاهـدين بصـدقـهم ويعـذّب المنافـقين إن شـاء أو يتـوب عليـهم ، بأن يوفّـقـهم للتّـوبة ويقـبلهـا منهم . وكـان عـزّ وجلّ غـفـوراً لمن استغفر ، رحيماً بمن تاب وأناب .

ب- (هو الّذي يصلّى عليكم وملائكته)

وممّا جاء في نعوت المؤمنين وثوابهم قولُ الحقّ جلّ وعلا[١] : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا . وسبّحوه بكرةً وأصيلاً . هو الّذي يصلّى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظّلمات إلى النّور. وكان بالمؤمنين رحيما . تحيّتهم يوم يلقونه سلام . وأعدّ لهم أجراً كريماً﴾ . يأمر الحقّ جلّ وعلا الّذين آمنوا بالله تعالى ربّا ، وبالإسلام دينا، وبمحمّد صلّى الله عليه وسلّم نبيّاً ورسولا ، وبالقرآن الكريم منهجاً ، أن يذكروا الله تعالى ذكراً كثيراً ، في كلّ الأوقات والأحوال ، وأن يسبّحوا الله تعالى وينزّهوه عن كلّ ما ألحقه به الظّالمون بكرةً وأصيلاً ، صبحاً ومساءً[٢] أوّل النّهار وآخره[٣] وصلاة الغداة ، بمعنى الصبح ، وصلاة العصر[٤] .

ويلاحظ أنّ الذّكر هو الشّعيرة الوحيدة الّتى لم يضع الشّارع الحكيم لها نهاية ، وذلك لسهولة الذّكر في كلّ الأوقات والأحوال. جاء في سورة النّساء[٥] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿فإذا قضيتم الصّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم . فإذا اطمأننتم فأقيموا الصّلاة . إنّ

---

(١) سورة الأحزاب الآيات/٤١- ٤٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٢٨/٦ .

(٣) الجلالين .

(٤) تفسير الطّبري ١٣/٢٢ .

(٥) الآية ١٠٣ .

الصّلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ وجاءفي معرض الثّناء على أولي الألباب في سورة آل عمران[١] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السّماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار﴾ وعن ابن عبّاس : إنّ الله لم يفرض على عباده فريضةً إلاّ جعل لها حدّاً معلوما ، ثمّ عذر أهلها في حال عذر ، غير الذّكر ، فإنّ الله لم يجعل له حدّاً ينتهى إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه ، إلاّ مغلوباً على تركه[٢] .

إنّ الحقّ جلّ وعلا هو الّذي يصلّي عليكم أيّها المؤمنون ، يثنى عليكم عند الملائكة[٣] ويرحمكم[٤] وتصلّى عليكم ملائكته الأطهار ، تدعو الله تعالى لكم[٥] وتستغفر الله تعالى لكم[٦] ليستمرّ إخراج الله تعالى لكم من ظلمات الجهل والضّلال ، إلى نور الهدى واليقين[٧] وكان عزّ وجلّ بالمؤمنين رحيماً في الأولى والآخرة . جاء في استغفار

---

(١) الآية ١٩١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٢٧/٦ .

(٣) فتح الباري ٥٣٢/٨ وصحيح البخاري ١٥١/٦ .

(٤) الجلالين .

(٥) فتح الباري ٥٣٢/٨ وصحيح البخاري ١٥١/٦ .

(٦) الجلالين .

(٧) تفسير ابن كثير ٤٢٨/٦ .

الملائكة للمؤمنين ودعاء الله تعالى لهم بكل خير قول الحقّ جلّ وعلا في سورة غافر[1] : ﴿الّذين يَحْمِلون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به ويستغفرون للّذين آمنوا ربّنا وَسِعْت كلّ شيء رحمةً وعلماً فاغفر للّذين تابوا واتّبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربّنا وأدخلهم جنّات عدن الّتي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم. إنّك أنت العزيز الحكيم . وقهم السّيّئات. ومن تق السّيّئات يومئذٍ فقد رحمته . وذلك هو الفوز العظيم﴾ .

في يوم القيامة يحيّيهم الحقّ جلّ وعلا على ألسنة الملائكة الأطهار ، كما يحيّى بعضهم بعضاً بتحيّة الإسلام ، السّلام عليكم، بمعنى السّلامة والأمن والطّمأنينة عليكم . جاء في سورة يس[2] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم﴾ وجاء في سورة الرّعد[3] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿والّذي صبروا ابتغاء وجه ربّهم وأقاموا الصّلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً وعلانيةً ويدرءون بالحسنة السّيّئة أولئك لهم عقبى الدّار . جنّات عَدْنٍ يدخلونها ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب . سلامٌ عليكم بما صبرتم . فنعم عُقْبى الدار﴾

---

(١) الآيات ٧-٩ .

(٢) الآية ٥٨.

(٣) الآية ٩و١٠.

وجاء في سورة يونس[1] قول الحقّ جلّ وعلا : (إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات يهديهم ربّهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار في جنّات النّعيم . دعواهم فيها سبحانك اللّهمّ وتحيّتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين) .

وقد أعدّ الله سبحانه وتعالى للمؤمنين أجراً عظيماً وثواباً كريماً في الجنّة الّتي فيها مالا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

إنّ المؤمنين إذا ذكروا الله تعالى ذكراً كثيراً ، وسبّحوه بكرةً وأصيلاً ، صلّى جلّ وعلا عليهم ، وذكرهم في الملأ الأعلى ، وأثنى عليهم ، ورحمهم ، وصلّت عليهم الملائكة ، ودعت الله تعالى من أجلهم ، واستغفرت الله تعالى لهم .

(٣) الآية ٩ و١٠ .

جـ - (اذكروا نعمة الله عليكم)

وعلى المؤمنين أن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم إذ نصرهم عزّ وجلّ بقيادة حبيبه صلّى الله عليه وسلّم على الأحزاب من مشركي قريش وغطفان ومن شايعهم من يهود بنى قريظة والمنافقين ، في غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق، الّتي كانت في شهر شوّال ، سنة خمس من الهجرة[1] قال عزّ من قائل[2] : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها . وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومنْ أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظّنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾ وما أشدّ ذكر الصّحابة رضي الله عنهم نعمة الله تعالى عليهم .

---

(١) السّيرة النبويّة لابن هشام ٣/٢٢٤ .

(٢) سورة الأحزاب ٩-١١ .

د- (لا تكونوا كالّذين آذوا موسى)

وعلى المؤمنين ألاّ يؤذوا محمّداً صلّى الله عليه وسلّم وألاّ يكونوا كبني إسرائيل الّذين آذوا موسى عليه السّلام . قال عزّ من قائل[١] : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين آذوا موسى فبرّأه الله تعالى ممّا قالوا. وكان عند الله وجيها﴾ وممّا أوذي به موسى عليه السّلام ما رواه البخاريّ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنّ موسى عليه السّلام كان رجلاً حييّاً ستّيراً[٢] لا يُرى من جلده شيءٌ استحياءً منه[٣] فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا : ما يتستّر هذا التّستّر إلاّ من عيب بجلده ، إمّا بَرَصٌ وإمّا أُدْرة[٤] وإمّا آفة . وإنّ الله عزّ وجلّ أراد أن يبرّئه ممّا قالوا لموسى عليه السّلام . فخلا يوماً وَحْدَه ، فخلع ثيابه على حجرٍ ثمّ اغتسل . فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإنّ الحجر عدا بثوبه . فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر . فجعل يقول : ثوبي حجر، ثوبي حجر[٥] حتّى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل ، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عزّ وجلّ وأبرأه ممّا يقولون . الحديث[٦] .

---

(١) سورة الأحزاب ٦٩ .

(٢) ستّره كستره . وستر الشّيء أخفاه . لسان العرب : " ستر" .

(٣) جاء في تفسير الطّبري ٣٧/٢٢ : "عن أبي هريرة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : إنّ بنى إسرائيل كانوا يغتسلون وهم عراة" .

(٤) الأدرة على وزن غرفة انتفاخ الخُصية وصاحبها آدر .

(٥) أي ثوبي يا حجر

(٦) تفسير ابن كثير ٤٧٣/٦ وانظر فتح الباري ٤٣٦/٦ حديث رقم ٣٤٠٤ .١١ .

وممّا أوذي به محمّدٌ صلّى الله عليه وسلّم ما رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قَسَم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ذات يومٍ قَسْماً فقال رجلٌ من الأنصار : إنّ هذه القسمة ما أريد بها وجه الله . قال : فقلت يا عدوّ الله ، أما لأخبرنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما قلت. قال : فذكر ذلك للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فاحمرّ وجهه ثمّ قال : رحمة الله على موسى . لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر. أخرجاه في الصّحيحين[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/٤٧٥ .

(٤)

أحكـامٌ عامّـــة

من صفات المدنيّ من القرآن اشتماله على الأحكام ، لأنّ تطبيق الأحكام يحتاج إلى الدّولة الّتى تفعل ذلك . ولم يكن للمسلمين في مكّة المكرّمة أدنى سلطة . وبهجرة المصطفى صلّى الله عليـــه وسلّم إلى المدينة المنوّرة وُلدت الدّولة الإسلاميّة.

وسـورة الأحـزاب المدنيّـة تشـتـمل على أحكام عـامّـة للمؤمنين ، وعلى أحكام خاصّة بالمصطفى صلّى الله عليه وسلّم.

وهذه هي الأحكام العامّة :

أ - لا تصير الزّوجة بالظّهار أمّاً ولا الدّعيّ بالتّبنّى ابناً:

قال تعالى[1] : ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم الّلائي تظاهرون منهنّ أمّهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم. ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحقّ وهو يهدي السّبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدّين ومواليكم . وليس عليكم جناحٌ فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم . وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

إنّ الله سبحانه وتعالى ما جعل الزّوجات الّلاتي يظاهر منهنّ أزواجهنّ أمّهات ، بقول الواحد منهم يريد الطّلاق في

---

(١) سورة الأحزاب ٤ و ٥ .

الجـاهليّـة : أنت عليّ كظهـر أمّي. يـريد أنت علـيّ كـبطن أمّي، وقـد تحوّلوا من البطن إلى الظّهـر إكراماً للوالدة . إنّ في الظّهـار الكفّارة، علـى نحـو مـا بيّنت سـورة المجـادلة[1] وبحكم الله تعالى لا تكون الزّوجة بالظّهار أمّاً.

وإن الله سـبحـانـه وتعـالـى مـا جـعـل أدعـيـاءكم الّذين تبنّيـتـموهم أبنـاءكم ، ومـا جعـل الّذين ادّعيـتم أنّهـم أبنـاؤكم أبناءً لكم على الحقيقة . إنّ ادّعاءكم أنّهم أبناؤكم وهم في الحقـيــقـة أبناء رجـال غيـركم ، وإنّ زعـمكم أنّهـم ابناؤكم على الحقيقة لا يعدو أن يكون قـولاً لكم بأفـواهكم ، وليس لذلك القـول رصيدٌ مـن الواقع ولا نصيبٌ من الحقيقة . إنّ عليكم أن تلحقوهم بآبائهم إن كانوا معروفي الآباء كزيد بن حارثة الّذي كان يُدّعَى زيد بن محمّد ثمّ دُعي لأبيه. وإن لم يكونوا مـعروفي الآباء فهم إخوانكم في الدّين وأصدقـاؤكم وأحبابكم.

وكـمـا شـمـل هذا الحكم زيد بـن حـارثـة الّذي كـان يُدّعَـى زيد بن مـحـمّـد شَـمل كلّ متبنًّـى . وبذلك قضـى هذا الحكم علـى ظاهرة التّـبنّـى . وتأكّـد القــضــاء على هذه الظّـاهرة حينـمـا تزوّج النّبـيّ صلى الله عليـه وسلّم زينب بنت جحش مطلّقة زيد بن حارثة الّذي كان يُدّعَى زيد بن محمّد.

---

(١) الآية ٣ و٤ .

لقـد تمّ القـضـاء على ظاهـرة التّـبنّى في السّـورة الكريمة نظريّاً هنـا ، وعـمليّاً بتـزويج الحقّ جلّ وعـلا مـحـمّداً صلّى الله عليـه وسلّم بزينـب بنت جـحش رضي الله تعـالى عنهـا من فـوق سـبع سـماوات . لقـد كـان مثل هذا الزّواج ممنوعـاً في الجـاهـليّـة . وهكذا قـضـى الإسـلام تمامـاً عـلى ظاهـرة التّبنّى.

ب- زوجات النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمّهات المؤمنين:

قـال تعـالى[1] : ﴿النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم﴾.

بحكم الله تعالى لا تصير الزّوجة بالظّهار أمًّا على الحقيقة. وبحكم الله تعالى زوجات النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمّهاتٌ للمؤمنين. قال تعالى:(وأزواجه أمّهاتهم). أي وحرمة أزواجه حرمة أمّهاتهم عليهم في أنّهنّ يحرم عليهم نكاحهنّ من بعد وفاته كما يحرم عليهم نكاح أمّهاتهم.[2]

وتأكيداً لهذا المعنى جاء في سورة الأحزاب الكريمة[3] قول الحق جلّ وعلا: ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا. إنّ ذلكم كان عند الله عظيما﴾ .

ج- أولو الأرحام أولى بالميراث:

قال تعالى: ﴿ النّبيّ أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمّهاتهم. وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلاّ أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا. كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾.

إنّ القول هنا: ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في

---

(١) سورة الأحزاب ٦ .

(٢) تفسير الطّبري ٧٧/٢١ .

(٣) الآية ٥٣ .

كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ والقول في الآية الكريمة الخامسة والسّبعين من سورة الأنفال الكريمة: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أوْلى ببعضٍ في كتاب الله﴾ وآيات المواريث الثّلاث في سورة النّساء وهي الآيات الكريمات الحادية عشرة، والثّانية عشرة، والسّادسة والسّبعون بعد المائة،إنّ كلّ ذلك نسخ الحكم المؤقت بالسّنّة للميراث بناءً على الإيمان والهجرة بسبب المؤاخاة التي عقدها المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بأمر من ربّه عزّ وجلّ بين المهاجرين والأنصار. لقد كان المهاجريّ يرث الأنصاريّ بسبب هذه الأخوة دون قرابته، وكان الأنصاريّ يرث المهاجريّ كذلك. لقد نسخت الآيات الكريمات ذلك الحكم المؤقت في الميراث، كما نسخت الآيات الكريمات كذلك الإرث بالحِلْف الّذي كان معمولاً به في الجاهليّة، ذلك الحكم الّذي أقرّه الإسلام في فجره، ولكنّه منع إنشاء أيّ حلف جديد، وهذا الإرث بالحلْف أشار إليه قول الحق جلّ وعلا في سورة النّساء[1] : (ولكلٍّ جعلنا موالي مّما ترك الوالدان والأقربون. والّذين عَقَدَتَ أيمانكم فآتوهم نصيبهم. إنّ الله كان على كلّ شئ شهيداً) والمعنى،والله تعالى أعلم، ولكلٍّ من الورثة، ذكراً كان أو أنثى، جعلنا عصبةً يرثون ممّا ترك الوالدان والأقربون، ويأخذ كلٌّ منهم

(١) الآية ٣٣ .

ما قسم الله تعالى له من الميراث. والّذين عقدت أيمانكم وشدّت، أكّدت مواثيقكم وقوّت، فآتوهم نصيبهم من التّركة، وأعطوهم حظّهم من الميراث. إنّ الله تعالى كان على كل شئٍ شهيداً، وأحاط بكل شئٍ علما. عن قتادة: كان الرّجل يعاقد الرّجل في الجّاهلية فيقول: دمي دمك وهدمي هدمك ترثني وأرثك وتطلب بي وأطلب بك. فجعل له السّدس من جميع المال في الإسلام، ثمّ يقسم أهل الميراث ميراثهم، فنسخ ذلك.[١] وعن ابن عبّاس: (والّذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) فكان الرّجل قبل الإسلام يعاقد الرّجل ويقول: ترثني وأرثك. وكان الأحياء يتحالفون. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : كل حِلف كان في الجاهليّة أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلاّ شِدّة ، ولا عقد ولا حلف في الإسلام . فنسختها هذه الآية:﴿ وَأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله)[٢]

د- لا عدّة على المطلّقة غير المفروض لها وغير المدخول بهاَ:

قال تعالى[٣] : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثمّ طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ فما لكم عليهنّ من عِدّةٍ تعتدّونها فمتعوهنّ وسرحوهنّ سراحاً جميلاً﴾ .

---

(١) تفسير الطّبري ٥/٣٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٣ والمراد الجزئيّة الكريمة من سورة الأنفال . تفسير الطبري ٥/٣٤

(٣) سورة الأحزاب ٤٩ .

ذهب القرطبيّ[1] إلى أنّ الآية الكريمة السّادسة والثّلاثين بعد المائتين من سورة البقرة في المطلّقة غير المفروض لها ولا المدخول بها، وهي لا مهر لها، بل أمر الرّبّ تعالى بإمتاعها. قال عزّ من قائل[2] (لا جناح عليكم إن طلّقتم النّساء ما لم تمسّوهنّ أو تفرضوا لهنّ فريضة. ومتعوهنّ على الموسع قَدَره وعلى المقتر قَدره متاعاً بالمعروف حقّاً على المحسنين) وأضاف القرطبي[3]: " وبيّن في سورة الأحزاب أنّ غير المدخول بها إذا طلّقت فلا عدّة عليها" وبذلك تكون الآيتان الكريمتان من سورة البقرة وسورة الأحزاب تتحدّثان عن المطلّقة غير المفروض لها وغير المدخول بها.

والمعنى، والله تعالى أعلم، يا أيّا الّذين صدّقوا الله تعالى وصدّقوا رسوله صلّى الله عليه مسلّم إذا نكحتم المؤمنات وعقدتم عليهنّ، ثم طلّقتموهنّ من قبل أن تجامعوهنّ فليس لكم عليهنّ من عدّة تحصونها عليهنّ، فآتوهنّ ما يستمتعن به من عَرَضٍ أو عين مال، وطلّقوهنّ طلاق سنة غير بدعة. ولا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابيّة في ذلك بالاتّفاق[4] وهذا أمرٌ مجمعٌ عليه بين العلماء: أنّ المرأة إذا

(١) تفسير القرطبي ١٠٠٥ .

(٢) سورة البقرة ٢٣٦ .

(٣) تفسير القرطبي ١٠٠٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٣١/٦ .

طلّقت قبل الدّخول بها لا عدّة عليها فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت. ولا يستثني هذَا إلاّ المتوفَّى عنها زوجها فإنها تعتدّ منه أربعة أشهرٍ وعشرا، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضا[1].

وفي غير هذا الموضع من الدّراسة تمّ الحديث عن الحجاب وإدناء الجلباب[2].

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٢/٦ .

(٢) في أثناء الحديث عن نعوت زوجات المصطفى صلّى الله عليه وسلّم .

(٥)

دركـــــات النفـــــاق

أ- وقت الحرب

من المواقف الّتي ظهر فيها المنافقون على حقيقتهم، ذلك الموقف الّذي رمى فيه الأحزاب المؤمنين عن قوسٍ واحدة ممثّلين في قريش وأحابيشها ، وغطفان وحلفائها. وبسبب تحزّب المشركين ضدّ المؤمنين في غزوة الأحزاب أو الخندق، وظهور المنافقين على حقيقتهم ، وغدر يهود بنى قريظة ونقضهم العهد مع المصطفى صلّى الله عليه وسلّم كانت غزوة الأحزاب ، من الوجهة النّفسيّة ، من أشقّ الغزوات على المؤمنين إن لم تكن أشقّها . وهذه هي الآيات الكريمات الّتى تتحدّث عن غزوة الأحزاب ، والمشقّة الّتى كابدها المؤمنون بقيادة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ومواقف المنافقين بمختلف دركاتهم . قال عزّ من قائل[1] : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها . وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومنْ أسْفَلَ منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظّنونا . هنالك ابْتُلِيَ المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً. وإذ يقول المنافقون والّذين في قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا. وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا. ويستأذن فريقٌ منهم النّبيّ يقولون إنّ

(١) سورة الأحزاب ٩-٢٠ .

بيوتنا عورةٌ وما هي بعورة إن يريدون إلاّ فرارا. ولو دُخلَتْ عليهم من أقطارها ثمّ سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبّثوا بها إلاّ يسيرًا. ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار. وكان عهد الله مسئولا. قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تُمَتَّعون إلا قليلا. قل من ذا الّذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً. قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا. ولا يأتون البأس إلا قليلاً. أشحّةً عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالّذي يُغْشَىَ عيه من الموت. فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحّةً على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم. وكان ذلك على الله يسيرا. يحسَبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودّوا لو أنّهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم. ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا﴾

ويصحّ أن يكون معنى الآية الكريمة: ﴿ وإذ يقول المنافقون والّذين في قلوبهم مرضٌ ما وعدنا الله ورسوله إلاّ غرورا﴾ يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله تعالى عليكم إذ نصركم على الأحزاب بريحٍ وجنودٍ لم تروها، واذكروا إذ يقول المنافقون الّذين قهرهم الإيمان فأخفوا الكفر وأبدوا الإيمان كي يأمنوا على دمائهم وأموالهم

وأعـراضـهم، وإذ يقـول الّذين في قلوبهم مـرضٌ وشكٌّ في الإيمان، وضـعفٌ فـي الاعـتـقـاد[1] مـا وعـدنا الله تعـالـى بالنّصر على المشركين، وما وعدنا رسوله الّذي يبلّغ عن ربه إلاّ غروراً وباطلاً[2]

ويلاحظ أننا بصدد فريقين من المنافقين وُصِفَ أحدهما بالنّفاق، ووُصفَ آخرهما بمرض القلب. ويلاحظ كذلك أنّ لفظ الجـلالة : (الله) يتـقـدّم ، وأنّ لـفـظ الرّسـول يتـأخّـر في القـول : (ورسـوله) وكـأنّ الـفـريق الأوّل مـن المنافـقين ليس لنفـاقه حـدود، وليـس لجـراءته نهـاية، فـهو يتـطـاول على الذّات العلـيّة ابتداءً ،

وكـأن الـفـريق الآخـر من المنافـقين يقلّ عن الفـريق الأوّل سـوءًا وجـراءة، وإنْ كـان الفـرق بين الفـريقين ليس كـبيـراً . وكــأنّ هـذا الفــريق الآخــر يتطـاول على الـرّســول الـكـريم ابتداءً، ثمّ على الذات العليّة انتهاءً.

وبذلك نكون أمـام فريقين من المنافقين، وكأنّ أولهـما هـو الأشــدّ سـوءاً وجــراءة، وكــأنّ السّــيــاق في الحــديث عن المنافـقين سـوف يواصل الحديث عنهم مـتـدرّجـا إلى الأقل سـوءاً، ومتّـجـهـا إلى الّذي يقلّ جـراءة. فإلى الآية الكريمة التّـاليـة. قـال عـزّ من قـائل: ﴿وإذ قـالت طائفـةٌ منهم يأهل

(١) تفسير الطّبري ٨٤/٢١ .

(٢) تفسير الطّبري ٨٦/٢١ .

يثرب لا مُقام لكم فارجعوا . ويستأذن فريقٌ منهم النّبيّ يقولون إنّ بيوتنا عورةٌ وما هي بعورةٍ إن يريدون إلا فرارا﴾ .

وواضحٌ أنّنا هنا أمام فريقين آخرين من المنافقين، وأنّ الفريق الأول أشدّ سوءاً من الفريق الآخر، وذلك على غرار ترتيب الفريقين السّابقين من المنافقين. والمعنى، والله تعالى أعلم، واذكروا أيّها المؤمنون كذلك نعمة الله تعالى عليكم بالنّصر إذ قالت طائفةٌ من المنافقين يا أهل يثرب. ويلاحظ أن لفظ يثرب، وهو الاسم الجاهليّ للمدينة المنوّرة لا يجئ في القرآن الكريم إلاّ في هذا الموضع، وهو يجيء على ألسنة هذا الفريق من المنافقين.وهو اسمٌ مرغوبٌ عنه، لأنّه مأخوذٌ من الثَّرَب، بالتّحريك، وهو الفساد، أو لكراهة التّثريب، وهو المؤاخذة بالذّنب، أو لتسميتها باسم كافر[1] علماً بأنّ المدينة المنوّرة تكاد تكون أكثر مدن الأرض وفرةَ أسماء وطيبِ معان، فقد أحصى السّمهوديّ في وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى[2] للمدينة المنوّرة أربعةً وتسعينَ اسماً . ومن هذه الأسماء طابَة، وطَيِّبة، وطيّبة، بالتّشديد وطائب ككاتب. وهذه الأربعة مع اسمها المُطَيَّبة، بضم أوّله وفتح ثانيه[3] أخواتٌ لفظٌ ومعنًى، مختلفاتٌ صيغةً ومبنى[4] وروى ابن زَبالة

(١) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسّمهودي ١/١٠تحقيق محمّد محي الدّين عبد الحميد .

(٢) ١/٨-٢٧ .

(٣) وفاء الوفا ١/٢٤ .

(٤) ١/١٦ .

وابن شَبَّة نهيه صلّى الله عليه وسلّم عن تسمية المدينة يثرب. وفي تاريخ البخاري حديث: من قال يثرب مرّة فليقل المدينة عشر مرّات[1]. واذكروا إذ قالت طائفةٌ من المنافقين يا أهل يثرب لا مكان إقامة[2] لكم على جبهة القتال وقَدْ رماكم المشركون عن قوس واحدة، فارجعوا إلى مدينة يثرب وإلى قومكم وأهلكم، واتركوا محمّداً وأصحابه كي يلقوا مصيرهم وهو الهزيمة، والقتل، واستئصال الشّأفة. ونستطيع أن نفهم أنّ هذا الفريق من المنافقين كان قد انسحب من الجبهة فعلاً، وهاهو ذا يطلب من أهل يثرب، وكأنّه يعني الأنصار من الأوس والخزرج، أن يحذوا حذوه، ويفعلوا القبيح مثله. إنّ الأنصار هم من الأوس والخزرج. وإنّ هؤلاء المنافقين من الأوس والخزرج أيضاً. وإنّ الفرق بين الأنصار وبين المنافقين هو الفرق الإيمان والكفر.

ويستأذن فريقٌ آخر من المنافقين النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الانسحاب من جبهة القتال والعودة إلى بيوتهم يزعمون أنّ بيوتهم عورة، وغير حصينة ويُخْشَى عليها من السّارقين والأعداء. والله تعالى بيّن أنّ تلك البيوت حصينة وليست بعورةٍ. كما يزعم المنافقون الّذين لا يريدون إلاّ الفرار من ميدان المعركة.

---

(١) وفاء الوفا ١/١٠ .

(٢) البحر المحيط ٧/٢١٨

وحينما نقارن بين هذين الفَريقين من المنافقين نتبيّن أنّ الفريق الأوّل من المنافقين انسحب من ميدان القتال وتسلّل لواذاً دون أن يستأذن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم في الانسحاب . أمّا الفريق الآخر الأقلّ سوءاً فإنّه يطلب إذن المصطفى صلّى الله عليه وسلّم له في الانسحاب من ميدان المعركة والعودة إلى الأهل والخلاّن جرياً على عادة الجبناء في كلّ زمان ومكان . وهكذا يتبيّن الاتجاه إلى الحديث عن المنافقين الّذين يقلّون سوءاً ويتحقّق التّدرّج الّذي أومأنا إليه.

وبذلك نكون حتّى الآن أمام أربع طوائف من المنافقين ، أو أربع دركات من النّفاق . ويلاحظ أنّ الفريقين الأخيرين من المنافقين قد انسحب أوّلهما من المعركة فعلاً دون استئذان من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، أمّا الفريق الآخر فإنّه يستأذن في الانسحاب ، متعلّلاً بأقبح الأعذار وأكذبها.

ويبدو أنّ حديث الآيات الكريمات بعد ذلك عن هذين الفريقين من المنافقين. يقرّر السّياق أنّ المدينة المنوّرة لو دخلها الأعداء ، على سبيل الافتراض ، من جميع جوانبها ونواحيها[1] ثمّ سُئِل هؤلاء المنافقون الّذين في المدينة

(١) تفسير الطّبري ٢١/٨٧ .

الفــتنـة والرّجـــوع من الإيمان إلى الشّـــرك[1] لأعطوا الفتنة[2] ولأسرعوا إلى الشّرك[3] وما انتظروا إلاّ يسيراً من الوقت ، وما تريّثوا إلاّ قليلاً من الزّمن ، بقدر ما يحتاجون لإعلان الشّرك ، وقبول الفتنة في الدّين .

والعجيب في أمر هؤلاء المنافقين الّذين انسحبوا من المعركة والّذين يريدون أن ينسحبوا أنّهم كانوا قد عاهدوا الله تعالى من قبل لا يولّون الأدبار ، ولا ينهزمون في المعركة ، ولا ينسحبون من ميادين الشّرف والرّجولة والبطولة . وكان عهد الله تعالى الّذي قطعه الإنسان على نفسه مسئولاً عن الوفاء به أمام الله تعالى .

ويصحّ أن يكون الفريقان من المنافقين ، وبخاصّة آخرهما الأقلّ سوءاً ، قد ذاق كلٌّ منهما وقتاً من الأوقات طعم الإيمان ، ولكن غلبت عليهم الشّقاوة بعد ذلك . وكأنّ هذين الفريقين ، وبخاصّة آخرهما ، أقرب الفئات المنافقة إلى الإيمان ، وكأنّهما يعنيهما مثلُ قول الحقّ جلّ وعلا في سورة النّساء[4] : (إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كُسالى يراءون النّاس ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا

(١) تفسير الطّبري ٨٧/٢١ .
(٢) تفسير الطّبري ٨٧/٢١ .
(٣) تفسير الطّبري ٨٧/٢١ .
(٤) الآية ١٤٢ و ١٤٣ .

إلى هؤلاء . ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً) وكأنّ هذين الفريقين من المنافقين ، وبخاصّة آخرهما ، يعنيهما المثل المائيّ في قول الحقّ جلّ وعلا في سورة البقرة[1] :(أو كصيّبٍ من السّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصّواعق حذر الموت. والله محيطٌ بالكافرين . يكاد البرق يَخْطِفُ أبصارهم . كلّما أضاء لهم مَشَوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا : ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم . إنّ الله على كلِّ شيءٍ قدير) والمعنى، والله تعالى أعلم : مثل هؤلاء المنافقين كمثل الّذي أوقد ناراً[2] وهؤلاء هم المنافقون الخُلّص[3] أو كمثل أصحاب صيّب، وهو المطر الشّديد الهائل[4] فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرق. يجعلون أصابعهم ، وليس أناملهم فقط ، في آذانهم من الصّواعق حذر الموت . والله محيطٌ بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم ويأخذها بسرعة[5] كلّما أضاء لهم البرق مشوا فيه بعدد مرّات إضاءته . وإذا أظلم عليهم قاموا ووقفوا وثبتوا في مكانهم[6] ولو شاء الله تعالى لذهب بسمعهم بزيادة قوّة الصّواعق والرّعد وتتابعها ،

---

(١) الآية ١٩ و ٢٠ .

(٢) تفسير القرطبي ١٨٤ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ١/٨٣ .

(٤) انظر البحر المحيط ١/٨٣ والكشّاف ١/١٦٥ .

(٥) تفسير القرطبي ١٩٢ .

(٦) الكشّاف ١/١٧٠ .

ولذهب بأبصارهم بزيادة قوّة البرق وتتابعه[1] إنّ الله تعالى على كلّ شيءٍ قدير . وهذاالمثل ضُرب للمنافقين المذبذبين المتردّدين : " تارةً يظهر لهم لمعٌ من الإيمان وتارةً يخبو . وهم أصحاب المثل المائيّ ، وهم أخفّ حالاً من الّذين قبلهم"[2] .

قل يا محمّد لأولئك المنافقين الجبناء لن ينفعكم الفِرار إن فررتم وهربتم من الموت أو القتل ، وإذاً لا تمتّعون في هذه الحياة الدّنيا إلاّ قليلاً ، ريثما يحين أجلكم ، وتنتهي حياتكم ، وتذوقون الموت . ويلاحظ تقديم الموت حتف الأنف في الذّكر على القتل ، من أجل حرص المنافقين على حياة الذّلّ والهوان ، وابتعادهم عن ميادين الشّرف والرّجولة والبطولة .

قل يا محمّد لأولئك المنافقين الجبناء من ذا الّذي يعصمكم ويمنعكم من الله تعالى إن أراد بكم سوءاً ، ومن ذا الّذي يستطيع أن يوصل إليكم سوءاً إن كان الله تعالى قد أراد بكم رحمة. ولا يجد أولئك المنافقون لهم من دون الله تعالى وليّاً يرعى مصالحهم، ولا نصيراً ينصرهم بصرف العذاب عنهم أو تخفيفه.

إنّ الله سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين المعوِّقين منكم

---

(١) انظر هنا – مثلاً – تأمُلات في سورة البقرة ١/١٥٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٨٤

والمثبّطين عن الجهاد في سبيل الله تعالى ، ويعلم القائلين لإخوانهم من الأوس والخزرج هلمّوا إلينا وتعالوا ودعوا محمّداً فلا تشهدوا معه فإنّا نخاف عليكم الهلاك بهلاكه[1] ولا يأتي أولئك المنافقون الجبناء البأس إلاّ قليلاً، ولا يحضرون القتال إلاّ بمقدار ما يأمنون به على دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

وبقدر جبن هؤلاء المنافقين هم اشحّاء عليكم بكلّ خير يمكن أن ينالكم ، وكلّ فضلٍ يمكن أن يخصّكم ، وكلّ عونٍ يمكن أن يقدّموه لكم . فإذاً جاء الخوف فعلاً ، والتقى الجمعان ، وحان وقت استلال السّيوف ، واستقبال الحتوف، رأيتهم يا محمّد ينظرون إليك تدور أعينهم كدوران عين الّذي يُغْشَى عليه من الموت وحضرت أسبابه . وفي كلّ مرّة تستقرّ أعينهم أخيراً على المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ، بطل الأبطال وسيّد الرّجال . إنّ الشّحّ ، وهو منع أصحاب الحقوق حقوقهم ، طبيعة المنافقين قبل المعركة . وإنّ تمكّن الرّعب منهم في أثناء المعركة ديدنهم . ودائماً يجدون ملاذهم في المصطفى صلّى الله عليه وسلّم الّذي تستقرّ أعينهم عليه بعد دوران ، وتستقيم بعد زَوَغان. وكما كان الشّحّ طبيعة المنافقين قبل المعركة ، كان طبيعتهم بعدها ، فهم حريصون على أن يكون الخير خاصّاً بهم،

---

(١) تفسير القرطبي ٢١/٨٩ .

والغنيمة مقصورةً عليهم ، إضافةً إلى ألسنتهم الحادّة الّتي يجرحون بها المؤمنين ويحرقونهم بها . إنّ أولئك المنافقين لم يؤمنوا على الحقيقة ، فأحبط الله تعالى أعمالهم الصّالحة بمقياس الإسلام ، لأنّها فقدت شرط الإخلاص لله تعالى . وكان إحباط أعمال المنافقين يسيراً على الله تعالى.

وإنّ أولئك المنافقين الجبناء يحسبون الأحزاب من المشركين لم يذهبوا إلى ديارهم ، ولم يعودوا من حيث أتوا . وإن يأت الأحزاب مرّةً ثانية ، ويعودوا تارةً أخرى ، يودّ المنافقون لو أنّهم كانوا بعيدين عن المدينة المنوّرة ، موغلين في أعماق البادية ، مجاورين للأعراب الموغلين في البداوة، يسألون عن أنبائكم المهمّة ، وأخباركم المدلهمّة[١] ولو كانوا فيكم ساعة القتال ، وفي ميدان المعركة ، ما قاتلوا إلاّ قتالاً ناعماً ، لا شوكة فيه ، ولا خير وراءه .

ويلاحظ مجيء جملة : "يأتي" في القول : (وإن يأت الأحزاب) دليلاً على أنّ الأحزاب قد ذهبوا عن المدينة فعلاً وأوغلوا في البعد عنها حقّاً و لأنّ جملة : "أتى" لا تُستَعمل في القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البُعْد ، والمراد بالبُعد هنا البعد المكانيّ. إنّ المنافقين لجبنهم لا يكادون يصدّقون أنّ الأحزاب قد ذهبوا ، ولا يكادون يفهمون ويستوعبون أنّ الله

(١) المدلهمّة : المظلمة .

سبحانه وتعالى وحده دون سواه هو الّذي نصر عبده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان إذا قفل من الغزو أو الحجّ أو العمرة يبدأ فيكبّر ثلاث مرارٍ ثم يقول : لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيءٍ قدير . آيبون تائبون عابدون ساجدون ، لربّنا حامدون . صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده[1] .

ب- وقت السِّلم :

وإذا كانت الآيات الكريمات السّابقات قد بيّنت طبائع نفوس المنافقين حينما يجدّ الجدّ ويحين القتال ، فإنّ الآيات الكريمات التّاليات تبيّن طبائع نفوس المنافقين وقت السّلم . قال عزّ من قائل[2] : (يا أيّها النّبيّ قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ . ذلك أدنى أن يُعْرَفْن فلا يؤذين . وكان الله غفوراً رحيماً . لئن لم ينته المنافقون والّذين في قلوبهم مرضٌ والمرجفون في المدينة لنغرينّك بهم ثمّ لا يجاورونك فيها إلاّ قليلاً . ملعونين

---

(١) فتح الباري ٤٠٦/٧ حديث رقم ٤١١٦ وصحيح البخاري ١٤٢/٥ ومعنى ثلاث مرار ، ثلاث مرّات .

(٢) سورة الأحزاب ٥٩ - ٦٢ .

أينما ثقفوا أُخذوا وقُتِّلوا تقتيلاً. سنّة الله في الّذين خَلَوْا مِنْ قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً).

يأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه صلّى الله عليه وسلّم بأن يقول لزوجاته أمّهات المؤمنين ولبناته رضوان الله تعالى عليهنّ أجمعين ، ولنساء المؤمنين وبأن يأمرهنّ بأن يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ ، ويرخين ثيابهنّ على كامل أجسادهنّ . ذلك الإدناء للثّياب , والستر للأجساد ، أدنى أن يُعْرَف أنّهنّ حرائر فلا يؤذين، وأقرب أن يُعْلَم أنّهنّ عفائف فلا يتعرّض لهنّ المنافقون ومرضى القلوب بشهوة الزّنا . وكان الله تعالى غفوراً لما سلف من عدم إرخاء الثّياب عليهنّ ، رحيماً بهنّ أن يعاقبهنّ بعد أن تبن توبةً نصوحاً ، فسترن الأجساد ، ولم يتبرّجن تبرّج الجاهليّة الأولى.

لئن لم ينته المنافقون عن نفاقهم وإيذائهم لله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين ، ويكفّ الّذين في قلوبهم مرض شهوة الزّنا عن إيذاء المحصنات من المؤمنات العفيفات ، ويمتنع المرجفون في المدينة عن العمل على تثبيط همّة المسلمين عن الجهاد في سبيل الله تعالى ، بإذاعة الأكاذيب عن جيوش المسلمين وسراياهم ، ونشر الأراجيف بأنّ جيوش المسلمين قد هُزمت ، وسراياهم قد أبيدت، وبأنّ القتل قد استحرّ فيهم ، وأثخنوا بالجرح ،

وما إلى ذلك ، لنغرينّك بهم أيّها الرّسول الكريم . وإنّ تلك الفئات من المنافقين ، إن لم تكفّ عن أعمالها المريبة، ولم تنته عن نواياها السّيّئة لنسلّطنّك عليهم أيّها النّبيّ العظيم، فلا يقرّ لهم قرار ، ولا يهدأ لهم بال ، ثمّ لا يجاورونك في المدينة المنوّرة إلاّ قليلاً من الوقت ، ريثما يتهيّأون للرّحيل ، ويستعدّون للجلاء .

إنّهم ملعونون من الله تعالى ، ومطرودون من رحمته عزّ وجلّ ، أينما ثُقفوا ، وحيثُما وُجدوا أُخذوا أخذاً عنيفاً ، وقتّلوا تقتيلاً شنيعاً . تلك هي سنّة الله تعالى في الّذين مضَوا من قبل ، وكانوا على شاكلة هذه الفئات من ضعاف الإيمان . ولن تجد يا محمّد لسنّة الله تبديلاً وتغييراً .

ويلاحظ أنّنا بصدد ثلاث فئاتٍ من ضعاف الإيمان . ويصحّ أن نلحق الفئة الأولى ، وهي فئة المنافقين ، بالفئتين الأولى والثّانية من فئات المنافقين الأربع السّابقة . ويصحّ أن نلحق الفئة الثّالثة وهي فئة المرجفين في المدينة بالفئتين الثّالثة والرّابعة من فئات المنافقين الأربع السّابقة ، وتلكما الفئتان انسحبت إحداهما من ميدان القتال فعلاً دون استئذان ، واستأذنت أخراهما النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الانسحاب من جبهة القتال.

وتبقى الفئة الثّانية ، وهي فئة الّذين في قلوبهم مرض .

والمرض في قلوب هذه الفئة هنا غير المرض الّذي في قلوب الفئة الثّانية السّابقة الّتي أشارت إليها الآية الكريمة الثّانية عشرة من السّورة الكريمة . إنّ المرض هنالك مرض النّفاق ، وإنّ المرض هنا مرض شهوة الزنا. وبناءً على ذلك تكون هذه الفئة فئةً خامسةً نصّت عليها سورة الأحزاب الكريمة.

جـ- فئات المنافقين في سورة الأحزاب :

كأنّ سورة الأحزاب الكريمة نصّت على خمس فئاتٍ من المنافقين هي :

١- المنافقون الخلّص .

٢- المنافقون الّذين في قلوبهم مرض الشّكّ والارتياب ، وهؤلاء يلحقون بالسّابقين وإن كانوا يقلّون عنهم قليلاً في صفة النفاق .

٣- المنافقون الجبناء الّذين انسحبوا من جبهة القتال دون استئذان أو استحياء .

٤- المنافقون الجبناء الّذين يستأذنون النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الانسحاب من جبهة القتال متعلّلين بأقبح الأعذار.

ويلحق المرجفون في المدينة بهاتين الفئتين الثّالثة والرّابعة من المنافقين.

٥- المنافقون الّذين في قلوبهم مرض شهوة الزّنا . وإلى هذا الفريق أومأت الآية الكريمة الّتي تخاطب نساء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم . قال عزّ من قائل[(١)] : (يا نساء النّبيّ لستنّ كأحد من النّساء . إن اتّقيتنّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الّذي في قلبه مرضٌ وقلن قولاً معروفاً).

وقد أشار بعض الآيات الكريمات من سورة الأحزاب الكريمة إلى المنافقين على جهة الإجمال . ويصحّ أن يُفْهَمَ من السّياق أو القرائن الفئة المعنيّة من المنافقين أو الفئات. وهذه هي الآيات الكريمات . قال تعالى[(٢)] : (يا أيّها النّبيّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين . إنّ الله كان عليماً حكيماً) وهذا المعنى تكرّر في قول الحقّ جلّ وعلا خطاباً للمصطفى صلّى الله عليه وسلّم[(٣)] : (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكّل على الله . وكفى بالله وكيلاً) وجاء في حقّ المنافقين الجبناء قول الحق جلّ وعلا[(٤)] : (ليجزي الله الصّادقين بصدقهم ويعذّب المنافقين إن شاء الله أو يتوب عليهم . إنّ الله كان غفوراً رحيماً) وجاء الإيماء إلى أكثر فئات المنافقين في قول الحقّ جلّ وعلا[(٥)] : (إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في

---

(١) سورة الأحزاب ٣٢ .

(٢) سورة الأحزاب ١ .

(٣) سورة الأحزاب ٤٨ .

(٤) سورة الأحزاب , ٢٤

(٥) سورة الأحزاب ٥٧ .

الدّنيـا والآخـرة وأعـدّ لهم عـذاباً مـهـيناً .والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) إنّ لدى المنافقين بمختلف فئاتهم جراءةً على الله تعالى، وعلى رسوله صلّى الله عليه وسلّم، كتصريح بعضهم بنية الزّواج بإحدى أمهات المؤمنين بعد موت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، رغم نهي الحقّ عن ذلك،وجراءةً على المؤمنين باتّهامهم بغير ما اكتسبوا . والمنافقون والمنافقات يستحقّون العذاب الأليم بسبب خيانتهم الأمانة .قال عزّ من قائل[1] :(إنّا عرضنا الأمانة على السّماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان. إنّه كان ظلوماً جهولاً . ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين و المؤمنات. وكان الله غفوراً رحيماً).

---

(١) سورة الأحزاب ٧٢ و ٧٣ .

(٦)

الكافـــــــرون

أ- غزوة الأحزاب

المراد بالكافرين في سورة الأحزاب في المقام الأوّل المشركون من قريش وأحابيشها، وغطفان وحلفائها، الّذين تحزبوا ضد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين في غزوة الأحزاب أو الخندق . وقد هزم الله تعالى الأحزاب وحده. وإلى دور المشركين في هذه الغزوة ومعاناة المؤمنين بقيادة المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أشار قوله تعالى[١] (يا أيّا الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها. وكان الله بما تعملون بصيراً. إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظّنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً).

والمعنى، والله تعالى أعلم، يا أيّها الّذين آمنوا بالله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم وبالقرآن المجيد وبدين الإسلام العظيم، اذكروا نعمة الله تعالى حين جاءتكم ووصلت إليكم فعلاً في المدينة المنوّرة، بجوار جبل أحد، الّذي يقع شماليّ المدينة المنوّرة، جنودٌ من المشركين، وأحزابٌ من الكافرين. وهؤلاء الجنود هم قريشٌ وقائدها أبو سفيان بن حرب، وغطفان وقائدها عيينة بن حِصن بن حذيفة بن بدر الفزارى[٢] و أقبلت قريش وأحابيشها

---

(١) سورة الأحزاب ٩-١١ .

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٢٢٦/٣ .

ومَن تبعهم من بني كنانة وأهل تِهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد[1] والجميع قريبٌ من عشرة آلاف[2]

وكانت غزوة الأحزاب أو الخندق في شوّال سنة خمسٍ من الهجرة[3] .

وسبب الغزوة أن فريقاً من يهود بني النّضير الّذين نزلت فيهم سورة الحشر أو سورة بني النَّضير والّذين كتب الله تعالى عليهم الجلاء فأخرجهم من المدينة المنوّرة سنة أربع من الهجرة[4] حرّضوا كلاًّ من مشركي قريش[5] وغطفان من قيس عيلان، على حرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[6] وأخبروا الفريقين أنّهم سيكونون معهم عليه[7].

علم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأنّ الأحزاب آتون فاستعدّ لهم وأمر بحفر الخندق بين الحرّتين الشّرقية والغرّبية شماليّ المدينة المنوّرة. ويُقال إنّ سلمان الفارسيّ رضي الله عنه هو الّذي أشار بحفر الخندق على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم[8] وروي أنّ المهاجرين يوم

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣/٢٣٠ و ٢٣١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٦/٣٨٤ .

(٣) السّيرة النّبويّة ٣/٢٢٤ .

(٤) السّيرة النّبويّة ٣/١٩٩ .

(٥) السّيرة النّبويّة ٣/٢٢٥ .

(٦) السّيرة النّبويّة ٣/٢٢٦ .

(٧) السّيرة النّبويّة ٣/٢٢٦ .

(٨) السّيرة النّبويّة ٣/٢٣٥ .

الخندق قالوا: سلمان منّا، وقالت الأنصار: سلمان منّا. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: سلمان مِنّا أهل البيت[1] وعمل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حفر الخندق ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا. وأبطأ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعن المسلمين في عملهم ذلك رجالٌ من المنافقين. وجعلوا يورّون[2] بالضّعيف من العمل، ويتسلّلون إلى أهليهم بغير علمٍ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولا إذن[3].

يا أيّها الّذين آمنوا اذكروا نعمة الله تعالى عليكم واشكروا له عزّ وجلّ حين جاءتكم جنود المشركين من قريش وغطفان وحلفائهما، فأرسلنا عليهم ريحاً شديدةً عنيفةً باردةً ملتئمة، وجنوداً لم تروها، وهي الملائكة[4] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكت عادٌ بالدَّبور[5] وكان الله تعالى بما تعملون أيّها المؤمنون بصيرا، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام ٣/٢٣٥.

(٢) يورون : يستترون .

(٣) السّيرة النّبويّة ٣/٢٦٦

(٤) تفسير الطّبري ٢١/٨١ .

(٥) فتح الباري ٧/٣٩٩ حديث رقم ٤١٠٥ .

وقد اقتصر حفر الخندق على الجهة الشّماليّة وحدها، بين الحرّتين الشّرقية الّتي تسمَّى حرّة واقم، سمّيت باسم حصن لبني عبد الأشهل الأوسيّين[1] وبين الحرّة الغربيّة، الّتي تسمَّى كذلك حرّة الوَبْرة[2] بسكون الباء، دويبة على قَدْر السِّنَّور غبراء أو بيضاء من دوابّ الصّحراء حسنة العينين شديدة الحياء تكون بالغَوْر[3].

وإنّما اقتصر حفر الخندق على الجهة الشّماليّة من المدينة المنوّرة بين الحرّتين، لأنّ هذه الجهة هي الوحيدة غير الحصينة، بينما الجهات الثّلاث الأخر حصينةٌ، بفضل الله تعالى، بطبعها. ولقد عرفنا أنّه يوجد في شرق المدينة وغربها حرّتان. والحرّة عبارةٌ عن أرض ذات حجارة سود نخرات كأنّها أحرقت بالنّار[4] وهي حجارة بركانيَّةٌ لا تسمح لأيّ جيشٍ نظاميّ آنذاك أن يخترقها لأنها مؤذيةٌ لكلّ حافر. وبسبب هاتين الحرّتين كانت المدينة المنوّرة حصينة : من جهتيها الشّرقيّة والغربية.

وفي الجهة الجنوبيّة من المدينة المنوّرة توجد قباء المشهورة ببساتينها الموصولة ، وحدائقها الغنّاء ، وأشجارها الباسقة ، ومياهها الدّافقة، ونخلها المنيف، وزرعها

---

(١) آثار المدينة المنوّرة للأستاذ عبد القدّوس الأنصاري ١٥١ .

(٢) آثار المدينة المنوّرة ١٥٣ .

(٣) لسان العرب : "وبر" .

(٤) لسان العرب : "حرر"

الكثيف. ومعروفٌ أنّ المناطق البركانيّة ترتبط بها الحِرار من ناحية، وهي في الأصل الحُمم الّتي قذفت بها البراكين ثمّ بردت الحُمم وجمدت، وترتبط بها التّربة الغنيّة من ناحية أخرى. وما أكثر الأماكن الزّراعيّة في المدينة المنوّرة، بسببٍ هذه التربة الغنيّة، وبسبب المياه الغزيرة كذلك.وبذلك كانت المدينة المنوّرة حصينةً أيضاً من جهتها الجنوبيّة.

وهكذا كانت المدينة المنوّرة مكشوفةً من الجهة الشّماليّة وَحْدَها وهي الجهة الّتي أتى منها الأحزاب في غزوة الخندق، وأتى منها مشركو قريش من قبل في غزوة أحد في السنّة الثّالثة من الهجرة، ولهذا حصّنها المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بالخندق، الّذي كان على هيئة هلال يصل بين الحرّتين. وبالإضافة إلى صعوبة اختراق الجيش النّظاميّ للحرّتين ، كان يسكن الحرّتين العديد من بطون الأوس والخزرج[1] .

والآية الكريمة الثّانية تأمر المؤمنين أن يذكروا نعمة الله تعالى عليهم حين جاءهم الأحزاب من فوقهم، وهم غطفان. بقيادة عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر في أهل نجد[2] والمعروف أنّ منطقة نجد تعلو منطقة المدينة المنوّرة، كما يبدو من اسمها :(نجد) وجاءوهم من أسفل منهم، وهم قريش، بقيادة أبي سفيان[3] والمعروف أن

---

(١) المدينة المنوّرة ١٥١-١٥٢ .

(٢) تفسير الطّبري ٨٢/٢١ .

(٣) تفسير الطّبري ٨٢/٢١ .

منطقة تهامة هي ساحل البحر، وهي هابطةٌ بطبعها عن منطقة المدينة المنوّرة، كما يبدو من اسمها كذلك:(تِهامة) وإنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا فرغ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رُومة،وهذه البئر في عرصة العقيق الكبرى، شمال غرب المدينة[1] بين الجُرُف، بالضّمّ والسّكون، وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشّام، وكان يسمَّى العرض، بكسر العين[2] وزُغابة، بضمّ الزّاي[3] غربيّ قبر حمزةَ رضي الله عنه، ويصبّ فيها سيل العقيق ووادي قناة وبُطحان[4] ونزل مع قريش أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة[5].

وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، حتّى نزلوا بذنَب نَقَمَى، بالتّحريك والقصر[6] إلى جانب أحد[7].

وخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمسلمون حتّى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع، بفتح السّين وسكون اللّام، جبل شامخ في شمال المدينة[8] في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره، والخندق بينه وبين القوم[9].

---

(١) آثار المدينة المنوّرة ١٧٨.

(٢) معجم البلدان : "الجرف" .

(٣) القاموس المحيط "زغب" .

(٤) آثار المدينة المنوّرة ١٢٥ .

(٥) السّيرة النّبويّة ٣/٢٣٠ .

(٦) السّيرة النّبويّة ٣/٢٣١ .

(٧) السّيرة النّبويّة ٣/٢٣١ .

(٨) آثار المدينة المنوّرة ١٤٦ .

(٩) السّيرة النّبويّة ٣/٢٣١ .

واذكروا نعمة الله تعالى عليكم أيّها المؤمنون حين جاءكم المشركون من فوقكم ومن أسفل منكم، وحين زاغت أبصاركم، ومالت عن الاستقامة[(١)] وعدلت الأبصار عن مقرها وشخصت طامحة[(٢)] وبلغت القلوب الحناجر، ونَبَتْ عن أماكنها من الرّعب والخوف فبلغت إلى الحناجر[(٣)] وقد حال ضيق الحناجر بين القلوب وبين أن تنخلع وتطير. والحناجر جمع الحَنْجرة، وهي الحُلقوم ومجرى النفَس في الرّقبة[(٤)] وتظنّون بالله تعالى الظّنون المختلفة. هل سننجو من هذه المحنة ، هل سنلقى الله تعالى ونُباد عن بَكْرة أبينا وتستأصل شأفتنا، هل سننتصر على أعدائنا بفضل الله تعالى. ولم يعلم المؤمنون أنّ الله سبحانه وتعالى سوف ينصرهم بفريقين من جنده عزّ وجلّ لا يريان ولكن تُرى آثارهما .الرّيح والملائكة.

هنالك وعند ذلك[(٥)] ابتلي المؤمنون وامتحنوا امتحاناً بليغاً، وزلزلوا من الوجهة النّفسيّة زلزالاً شديداً مدمّرا، ولكنّ الله تعالى لطف بالمؤمنين وسلّمهم فنصرهم عزّ وجلّ بريح الصَّبا وبالملائكة الأطهار. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: نُصِرْتُ بالصَّبا، وأهلكت عادٌ بالدّبور[(٦)] ورويّ عن عبد الله بن أبي أوفَى

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : "زيغ" ٢٨٧/١ .

(٢) تفسير الطّبري ٨٣/٢١ .

(٣) تفسير الطّبري ٨٣/٢١ .

(٤) المعجم الوسيط : "حنجرة" .

(٥) تفسير الطّبري ٨٤/٢١ .

(٦) فتح الباري ٣٩٩/٧ حديث رقم ٤١٠٥ .

رضي الله عنهما أنّه قال: دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على الأحزاب فقال: اللّهمّ مُنزّل الكتاب، سريع الحساب،اهزم الأحزاب، اللّهمّ اهزمهم وزلزلهم[1] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول : لا إله إلاّ الله وحده، أعزّ جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شئ بعده[2]) وروي عن سليمان بن صُرَد أنّه قال: سمعت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: حين أجلى الأحزابُ عنه: الآن نغزوهم ولا يغزوننا. نحن نسير إليهم[3] وصدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، بطل الأبطال، وسيّد الرّجال، الّذي لا ينطق عن الهوى.

وقد أشارت سورة الأحزاب الكريمة إلى هزيمة الأحزاب النّكراء وعاقبتهم الشّنعاء، وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا[4] : (وردّ الله الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً .وكفى الله المؤمنين القتال. وكان الله قويّاً عزيزاً) لقد ردّ الله تعالى مشركي قريش وغطفان وحلفاءهما بغيظهم وحنقهم وحقدهم وخسرانهم المبين، لم ينالوا خيراً، ولم يحقّقوا ظفرا. وكفى الله تعالى المؤمنين القتال وأغناهم عنه حينما سلّط بعض جنده من الرّيح والملائكة على المشركين. وكان الله تعالى دائماً وأبداً قويّاً قديراً، عزيزاً غالباً.

(١) فتح الباري ٤٠٦/٧ حديث رقم ٤١١٥ .

(٢) فتح الباري ٤٠٦/٧ حديث رقم ٤١١٤ .

(٣) فتح الباري ٤٠٥/٧ حديث رقم ٤١١٠ .

(٤) سورة الأحزاب ٢٥ .

ب - الكافرون ملعونون :

والكافرون يستهزئون بيوم القيامة فلهم خزي الدّنيا وعذاب الآخرة .. قال عزّ من قائل[1] :(يسألك النّاس عن السّاعة. قل إنّما علمهما عند الله وما يدريك لعل السّاعة تكون قريبا. إنّ الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا. خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً. يوم تُقَلَّب وجوههم في النّار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرّسولا. وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلّونا السّبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً).

والمعنى، والله تعالى أعلم، يسألك يا محمّد النّاس عن السّاعة، والكافرون المستهزئون عن يوم القيامة، متى تقوم السّاعة؟ ومتى يكون يوم القيامة؟ دون إيمانٍ منهم بالسّاعة، ولا استعداد منهم ليوم القيامة. قل يا محمّد إنّما علم قيام السّاعة عند الله تعالى وحده لا شريك له. إنّه لا يعلم موعد يوم القيامة نبيٌّ مرسل ولا مَلَكٌ مقرَّب، ومن باب الأحْرى والأولى سواهما .وما يدريك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم لعلّ السّاعة تكون قريباً، لأنّ كلّ آت قريب. عن سفيان بن عيينة قال: ما في القرآن:(وما

---

(١) سورة الأحزاب ٦٣-٦٨ .

يدريك) فلم يخبره. وما كان : (وما أدراك) فقد أخبره[1]

إنّ الله سبحانه وتعالى لعن الكافرين وطردهم من رحمته في الأولى ، وأعدّ لهم سعيراً ، وناراً شديدةً يدخلونها[2] خالدين في تلك النّار أبداً . لا يجدون لهم من دون الله تعالى وليّاً يتولّى أمورهم ، ولا نصيراً ينصرهم بصرف العذاب عنهم أو تخفيفه.

في ذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود تُقَلّب وجوههم في النّار. وحينما تقلّب الوجوه ، وهي أشرف أعضاء الجسد ، في النّار ، فمن باب الأحرى والأولى أن يُقلّب سائر الجسد في النّار. يقول أولئك الكافرون وهم يقلّبون في النّار المتأجّجة يا ليتنا أطعنا الله تعالى فآمنّا ولم نشرك به عزّ جلّ شيئاً، وأطعنا الرّسول صلّى الله عليه المبلّغ عن ربّه عزّ وجلّ .

وقال الكافرون يا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وأشرافنا[3] وأطعنا كبراءنا وعلماءنا[4] فأضلّونا السّبيل لأنّهم ضالّون عن سبيل الرّشاد . ربّنا اعطهم مثلين من العذاب بسبب كفرهم وإغوائهم إيّانا[5] والعنهم لعناً كبيراً ، واطردهم يا ربّنا من رحمتك طرداً بعيداً .

(١) تفسير الطّبري ٣١/٢٩ وانظر تفسير القرطبي ٦٧٣٦ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٧٣/٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٧٣/٦ .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٧٣/٦ .

جـ - الكافرون كاذبون مؤذون معذّبون :

وممّا زعمه كفّار قريش أنّ فيهم رجلاً له عقلان اثنان يعقل بكلّ واحد منهما أفضل من عقل محمّد صلّى الله عليه وسلّم[1] وقد أكذبهم الحقّ جلّ وعلا في الآية الكريمة الرّابعة من السّورة الكريمة . قال عزّ من قائل : (ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه) وقد نهى الله تعالى حبيبه صلّى الله عليه وسلّم أن يطيع الكافرين والنافقين . جاء في الآية الكريمة الأولى القول : (يا أيّها النّبيّ اتّق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين . إنّ الله كان عليماً حكيماً) وجاء في الآية الكريمة الثّامنة والأربعين القول : (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكّل على الله . وكفى بالله وكيلاً) والكافرون يشاركون المنافقين في إيذاء الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين جاء في الآيتين الكريمتين السابعة والخمسين والثّامنة والخمسين القول : (إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدّنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً . والّذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) وانظر إلى الانسجام الصّوتيّ والمعنويّ بين القولين: (اكتسبوا) و (احتملوا) إنّ الاكتساب والاحتمال يكونان بصعوبةٍ ومشقّة[2] .

---

(١) أسباب النّزول ٤٠٧ .

(٢) انظر -مثلاً- لسان العرب : "كسب" والمحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيّة ٥٤٤/٢ الطبعة الأولى قطر ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

والكافرون يشاركون المنافقين في تعذيب الله تعالى لهم بسبب خيانة الفريقين للأمانة. قال تعالى[1] : (ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات. وكان الله غفوراً رحيماً) وقال تعالى[2] : (ليسأل الصّادقين عن صدقهم وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً).

(١) سورة الأحزاب ٧٣ .

(٢) سورة الأحزاب ٨

(٧)

غدر يهود بني قريظة وعقابهم

خصّت سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة يهود بني قريظة بهاتين الآيتين الكريمتين . قال عزّ من قائل[1] :(وأنزل الّذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرّعب . فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطَأوها . وكان الله على كلّ شيء قديرا).

والمعنى ، والله تعالى أعلم ، وأنزل الله تعالى الّذين أعانوا الأحزاب من قريش وغطفان على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه ، وعنى بذلك بني قريظة[2] من أهل التّوراة وكانوا يهودا[3] من حصونهم[4] الّتي كانوا يتحصّنون فيها ويظنّون أنّها تحميهم وتمنعهم ممّن قصدهم وحاربهم . وقذف عزّ وجلّ في قلوبهم أشدّ الخوف[5] تقتلون أيّها المؤمنون فريقاً منهم وهم المقاتلة[6] وتأسرون فريقاً آخر وهم النّساء والذّرّيّة[7] وأورثكم أرضهم ، أي مزارعهم ومغارسهم[8] وديارهم ، أي مساكنهم[9]

---

(١) سورة الأحزاب ٢٦ و ٢٧ .

(٢) تفسير الطّبري ٩٥/٢١ .

(٣) تفسير الطّبري ٩٥/٢١ .

(٤) تفسير الطّبري ٩٥/٢١ .

(٥) انظر -مثلاً- مفردات الرّاغب الأصفهاني : "رعب" ٢٦١/١ .

(٦) فتح الباري ٤١٢/٧ حديث رقم ٤١٢٢ .

(٧) فتح الباري ٤١٢/٧ حديث رقم ٤١٢٢ .

(٨) تفسير الطّبري ٩٨/٢١ .

(٩) تفسير الطّبري ٩٨/٢١ .

وأموالهم ، أي سائر الأموال غير الأرض والدّور[1] وأرضاً لم تطأوها ، قيل هي أرض خيبر ، وقيل غير ذلك[2] وكان الله تعالى قديراً على كلّ شيء ، ومن ذلك أنّه عزّ وجلّ هزم الأحزاب وحده , ووضع أنوف المنافقين في الرَّغام ، وأنزل يهود بنى قريظة الّذين نقضوا عهدهم مع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من حصونهم الّتي ظنّوا أنّها ما نعتهم من الله عزّ وجلّ .

وهذا التّفسير الموجز للآيتين الكريمتين بحاجةٍ في بعض جوانبه إلى شيءٍ من التّفصيل .

من المعروف أنّ وفداً من يهود بني النّضير الّذين أجلاهم النّبيّ صلّى الله من المدينة المنوّرة سنة أربع من الهجرة ألّبوا قريشاً وغطفان وحلفاءهما ضدّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين . ورأس هذه العصابة من يهود بني النّضير عدو الله حُيَيّ بن أخطب النَّضَري . وحينما وصل الأحزاب إلى المدينة المنوّرة وعسكروا قرب جبل أحُد خرج حُيَيّ بن أخطب النَّضَريّ حتّى أتى كعب بن أسد القُرظي صاحب عقد قريظة وعهدهم . وكان قد وادع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على قومه , وعاقده على ذلك وعاهده[3] حاول حييّ ان يحمل كعباً عن نقض عهده

---

(١) تفسير الطّبري ٢١/٩٨ .

(٢) انظر مثلاً تفسير الطّبري ٢١/٩٨ و ٩٩ .

(٣) السّيرة النبويّة ٣/٢٣١ .

مع النّبيّ صلّى الله عليـه وسلّم فلم يُفْلِح أوّل الأمـر ، لأنّ كعبـاً القرظيّ لم يجـد من النّبيّ صلّى الله عليـه وسلّم إلاّ وفاءً وصدقاً[١] رغم أنّ حييّاً بشّر كعباً بأنّه جاءه بقريش على قادتها وسادتها وبغطفان، على قادتها وسادتها[٢] واستجاب كعب بن أسد لحييّ بن أخطب فقط بعد : " أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً لئن رَجَعَتْ قريش وغطفان ولم يصيبوا محمّداً أن أدخل معك في حصنك حتّى يصيبني ما أصابك . فنقض كعب بن أسد عهده ، وبرىء ممّا كان بينه وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم"[٣] .

وحينما علم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بنقض قريظة للعهد أراد أن يستوثق من صحّة النّبأ فأرسل لأجل هذا الغرض سعد بن معاذ سيّد الأوس ، وسعد بن عُبادة سيّد الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة الخزرجيّ ، وخوّات بن جبير الأوسي . وأخبرهم النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إن كان النّبأ صحيحاً أن يلحنوا له صلّى الله عليه وسلّم لحناً يعرفه ، بمعنى أن يقولوا كلاماً يفهمه النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وَحْدَه ، كيلا يُفَتّ في أعضاد النّاس . أمّا إن كان القوم على عهدهم ففي إمكانهم أن يجهروا بهذه الحقيقة

---

(١) السّيرة النبويّة ٢٣١/٣ .

(٢) السّيرة النّبويّة ٢٣٢/٣ .

(٣) السّيرة النبويّة ٢٣٢/٣

للنّاس[(١)] ذهب الوفد إلى بنى قريظة ، وتأكّدوا من نقضهم العهد ، وعادوا ، ولحنوا للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لحناً عرف به غدر القوم : "فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين"[(٢)] وقد أراد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بهذا القول الرّفع من الرّوح المعنوية للمسلمين ، وكأنّ خبراً سارّاً وصله عليه الصّلاة والسّلام . وكان بنو قريظة حلفاء سعد بن معاذ في الجاهليّة ومواليه[(٣)] وشاء الله تعالى أن يصيب سهمٌ في المعركة العِرْق الأكحل من سعد بن معاذ[(٤)] رضي الله عنه. والأكحل عِرْقٌ في وسط الذّراع . قال الخليل : هو عرق الحياة[(٥)] فدعا سعد الله تعالى فقال : اللّهمّ لاتُمِتْني حتى تُقِرّ عيني من بني قريظة[(٦)]

والمعروف أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حُصِر في غزوة الأحزاب شهراً[(٧)] ونصر الله تعالى عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده . وكانت غزوة الخندق في شهر شوّال . وانتهت لسبعٍ بقين من ذي القعدة[(٨)] وفي اليوم ذاته بدأت غزوة بني قريظة .

---

(١) انظر السّيرة النّبويّة ٣/٢٣٢.

(٢) السّيرة النبويّة ٣/٢٣٣ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٦/٤٠٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٦/٤٠٠ وفتح الباري ٧/١١ حديث رقم ٤١٢٢.

(٥) فتح الباري ٧/٤١٣ .

(٦) تفسير ابن كثير ٦/٤٠٠ .

(٧) تفسير الطّبري ٢١/٨١ .

(٨) فتح الباري ٧/٤٠٥ و ٤٠٨ .

عن عائشة رضي الله عنها قال : لمّا رجع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من الخندق ووضع السّلاح واغتسل أتاه جبريل عليه السّلام فقال : قد وَضَعْتَ السّلاح ؟ والله ما وضعناه ، فاخرج إليهم . قال : فإلى أين؟ قال ههنا . وأشار إلى قريظة ، فخرج النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم إليهم [١] وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يوم الأحزاب : لا يصلّين أحدٌ العصر إلاّ في بني قريظة . فأدرك بعضهم العصر في الطّريق ، فقال بعضهم: لا نصلّي حتّى نأتيهم . وقال بعضهم : بل نصلّي . لم يُرد منّا ذلك . فذُكر ذلك للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فلم يعنّف واحداً منهم [٢] .

وقد حاصر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يهود بني قريظة خمساً وعشرين ليلةً فيما يقال [٣] ونزل يهود بني قريظة أخيراً على حكم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم [٤] وقد ردّ عليه الصّلاة والسّلام الحكم إلى سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه سيّد الأوس [٥] الّذي قال : تُقْتَل مقاتلتهم، وتُسْبَى ذراريهم. قال : قضيت بحكم الله . وربّما قال:

---

(١) فتح الباري ٤٠٧/٧ حديث رقم ٤١١٧ .

(٢) فتح الباري ٤٠٧/٧ حديث رقم ٤١١٩ .

(٣) السّيرة النّبويّة ٢٤٦/٣ .

(٤) السّيرة النّبويّة ٢٤٩/٣ .

(٥) السّيرة النّبويّة ٢٥٠/٣ .

بحكم الملك[1] وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لسعد لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة[2] .

وقد وافق ذلك قانون الحرب في شريعة بنى إسرائيل . فقد جاء في سفر التّثنية (الإصحاح العشرون ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ : "حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصّلح . فإن أجابتك إلى الصّلح وفتحت لك فكلّ الشّعب الموجود فيها يكون لك للتّسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها . وإذا دفع الرّبّ إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السّيف . وأمّا النساء والأطفال والبهائم وكلّ ما في المدينة كلّ غنيمتها فتغتنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك الّتي أعطاك الرّبّ إلهك"[3] .

والآيتان الكريمتان يؤكّد معناهما قول النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم لسعد بن معاذ : "لقد حكمت فيهم بحكم الله" فالله سبحانه وتعالى هو الّذي أنزل يهود بنى قريظة من حصونهم ، وهو الّذي قذف في قلوبهم الرّعب ، وهو الّذي أورث المؤمنين أرض بني قريظة وديارهم وأموالهم وأرض خيبر . والله تعالى دائماً وأبداً على كلّ شيءٍ قدير .

---

(١) فتح الباري ٤١١/٧ حديث رقم ٤١٢١ .

(٢) السّيرة النّبويّة ٢٥١/٣ والأرقعة السّماوات الواحدة رقيع .

(٣) السّيرة النّبويّة لأبي الحسن النّدوى ٢١٣ دار الشّروق جدّة . الطّبعة الأولى ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م

ويلاحظ أنّ الحقّ جلّ وعلا يقذف في قلوب بني قريظة الرّعب ، وهو أشدّ الخوف . وليس ثمّة اللّفظة الّتي يمكن أن تؤدّي معنى هذه اللّفظة أو تقترب من ذلك الأداء . ولفظة الرّعب جاءت في القرآن الكريم خمس مرّاتٍ . جاءت في سورة الكهف في الآية الكريمة الثّامنة عشرة مخاطبةً كلّ إنسان قُدّر له أن تبصر عيناه أهل الكهف الّذين لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة شمسيّة ، أو ثلاثمائة وتسع سنوات قمريّة . ووراء ذلك استعمل القرآن الكريم لفظة الرّعب في حقّ اليهود وفي حقّ المشركين . ولم تُسْتَعْمَل هذه اللّفظة في حقّ المؤمنين مطلقاً . لقد استُعْملت اللّفظة في سورة الأحزاب في حقّ يهود بنى قريظة ، وفي سورة الحشر في الآية الكريمة الثّانية في حقّ يهود بنى النّضير . واستعملت اللّفظة في سورة آل عمران في الآية الكريمة الحادية والخمسين بعد المائة في حقّ كافري قريش الّذين حاربوا المسلمين في غزوة أحد ، وفي سورة الأنفال في الآية الكريمة الثّانية عشرة في حقّ الكافرين ذاتهم الّذين حاربوا المسلمين في غزوة بدر .

وبشأن لفظة الصّياصي، بمعنى الحصون ، والمفرد الصِّصِيَة ، حصل بشأنها ما يمكن أن يسمّى بتطوّر الدّلالة. إنّ الصّيصية تطلق أساساً على الشّوكة في ساق الدّيك الّتي يقاتل بها. وبسبب التّشابه في الشّكل والفعل

أطلقت على قرن الثّور الّذي يقاتل به ويطعن . ثمّ أطلقت اللّفظة على الحصن . وبهذا المعنى جاءت لفظة الصّياصي في الآية الكريمة . ثمّ أطلقت اللّفظة على شوكة الحائك بسبب الشّبه شكلاً بشوكة الدّيك وبقرن الثّور من ناحية ، وبسبب أنّها كالحصن تمنع من فساد الغَزْل[1] من ناحية أخرى.

---

(١) درسنا تطوّر دلالة اللّفظة بإسهاب في كتابنا : تأمّلات في سورة الأحزاب ٢٢٤-٢٢٦ مطبوعات نادي مكّة الثّقافي الأدبي ١٤٠٣هـ .

الخاتمــة

في الصّفحات السّابقات بيّنّا بفضل الله تعالى المحور الّذي تدور حوله سورة الأحزاب المدنيّة الكريمة الّتي أشارت إلى الكثير من الحوادث الّتي وقع بعضها في نهاية سنة خمس من الهجرة كغزوة الأحزاب أو الخندق ، وغزوة بني قريظة . والمحور الّذي تدور حوله السّورة الكريمة هو الأمانة الّتي وفّى بعض الفئات أداءها ، وقصّر بعضهم الآخر . وفي ضوء تقسيم سورة الواقعة في ختامها النّاس إلى مقرّبين وأصحاب يمين ومكذّبين ضالّين تمّ ترتيب الفئات الّتي تحدّثت عنها السّورة الكريمة. وكان الاتّجاه من رأس الهرم إلى السّفح فالقاعدة. وكان الابتداء بأشرف المرسلين وخاتم النّبيّين محمّد بن عبد الله صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين. وهو عليه الصّلاة والسّلام زعيم أولي العزم من الرّسل المشهود لهم بالصّبر. وشملت الدّراسة بعد ذلك أمّهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهنّ، والمؤمنين، والمراد بهم في المقام الأوّل الصّحابة رضوان الله تعالى عليهم. وبيّنت الدّراسة الأحكام الخاصة بالمصطفى صلّى الله عليه وسلّم في السّورة الكريمة والأحكام العامّة، وشملت المنافقين، والكافرين، ويهود بني قريظة الغادرين وعقابهم. وفي مجال الإعجاز بيّنت الدّراسة على جهة الخصوص الأسباب الّتي جعلت المصطفى صلّى الله عليه وسلّم

الشّخص الوحيد في الدّنيا الّذي يمكن اتّخاذه أسوةً حسنة ، والحكمة من وصف المصطفى صلّى الله عليه وسلّم بأنّه سراجٌ منير ، وليس سراجاً مضيئاً ، وبأنّه خاتم النّبييّن ، وليس خاتم المرسلين.

والله تعالى أسأل أن يتقبّل هذا العمل وينفع به إنّه جوادٌ كريم. وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

فهرست المصادر والمراجع

القـرآن الكـريم

ابـن حـجـر :

(أحمد بن علي بن حجر السعقلاني) الإصابة في في تمييز الصّحابة. دار إحياء التّراث العربي تصوير بيروت لبنان الطّبعة الأولى سنة ١٣٢٨هـ فتح البارى بشرح صحيح البخاري عبدالعزيز بن عبداللّه بن باز. محّمد فؤاد عبدالباقي، محبّ الدّين الخطيب. المكتبة السّلفيّة.

ابن رواحة:

(عبداللّه) ديوان عبداللّه بن رواحة الأنصاري الخزرجي، شاعر الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم دراسة جمع وتحقيق د. حسن محمّد باجودة. القاهرة ١٩٧٢م.

ابن عطيّة:

(أبو محمّد عبدالحقّ بن عطيّة الأندلسيّ) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق الرّحّالي الفاروقي، عبداللّه بن إبراهيم الأنصاري، السّيّد عبدالعال السّيّد إبراهيم، محمّد الشافعي صادق العناني الطّبعة الأولى قطر ٢٣٩٨هـ ١٩٧٧م.

ابـن القيـم

(أبو عبـداللّه محـمّد بن أبى بكر) طريق الهـجـرتين وباب السّـعـادتـين. دار الكتــاب العـربـى ببـيــروت. بدون تـاريخ. وتحقيق السّيّد محبّ الدّين الخطيب. القاهرة ١٩٧٤م.

ابن كثير:

(عماد الدّين أبو الفدا إسماعيل بن كثير) تفسير القرآن الكريم العظيم. دار الشّعب. بدون تاريخ. تحقيق عبدالعزيز غنيم، محمّد أحمد عاشور، محمّد البنّا.

ابن منظور:

(جـمــال الــدّين مـحـمّـد بـن مكرم) لســان العــرب بيـــروت ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.

ابن هشام:

(عبـدالملك) السّـيـرة النّبـويّة. تحـقـيق مـصطفى السّـقّـا، إبراهيم الإبياري، عبدالحفيظ شلبي حلبي. تصوير بيروت.

أبو حيّـان:

(محـمـد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حـيّان) البـحـر المحيط. تصوير بيروت. بدون تاريخ.

الأنصاري:

(عبدالقدّوس) آثار المدينة المنّورة. الطّبعة الثّانية ١٣٧٨هـ نشر المكتبة العلميّة بالمدينة المنوّرة.

باجودة:

(حسن محمّد) تأمّلات في سورة الأحزاب. من مطبوعات نادى مكّة الثقافي الأدبي ١٤٠٣هـ. تأمّلات في سورة البقرة، دار مصر للطّباعة ١٩٩٢م.

البخاري:

(أبو عبدالله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم) كتاب الصّحيح. كتاب الشّعب ١٣٧٨هـ.

التّرمذي:

(أبو عيسى محمّد بن سورة) الشّمائل المحمّديّة، تحقيق محمّد عفيف الزّعبي الطّبعة الأولى جدّة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

الراغب الأصفهاني:

(أبو القاسم الحسين بن محمّد. المفردات في غريب القرآن. مكتبة الباز. الطّبعة الأولى ١٩٤٨هـ ١٩٩٧م.

الزّمخشري:

(أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزّمخشري) الكشّاف حلبي ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م.

السمهودى:

(نور الدّين علي بن أحمد) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى. تحقيق محمّد محي الدّين عبدالحميد. دار إحياء التّراث العربي. بيروت بدون تاريخ.

السيوطى:

(جلال الدّين عبدالرّحمن) الإتقان في علون القرآن تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٧٤م تفسير الجلالين.

الطّبرى:

(محبّ الدّين أحمد بن عبداللّه) الرّياض النّضرة في مناقب العشرة. عناية عبدالمجيد طعمة الحلبي. دار المعرفة. بيروت لبنان. الطّبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

الطّبرى:

(أبو جعفر محمّد بن جرير) جامع البيان في تفسير القرآن. الطّبعة الأولى بولاق ١٣٢٩هـ.

الطنطاوى:

(علي وناجى) أخبار عمر وأخبار عبداللّه بن عمر. الطّبعة الثّامنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م. بيروت.

الفيروزابادي:

(مجد الدّين محمّد بن يعقوب) القاموس المحيط. حلبي. بدون تاريخ.

القرطبي:

(أبو عبدالله بن محمّد بن أحمد الأنصاري) الجامع لأحكام القرآن. دار الشعب. القاهرة. بدون تاريخ.

مالك:

(الإمام مالك بن أنس) الموطّأ. صحّحه ورقّمه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمّد فؤاد عبدالباقي. دار إحياء التّراث العربي. تصوير بيروت.

مسلم:

(أبو الحسين مسلم بن الحجّاج) الصّحيح. شرح الإمام النّووي. مصر ١٣٤٩هـ وبتحقيق محمّد فؤاد عبدالباقي تصوير المكتبة الفيصليّة. بمكّة المكرّمة.

النّدوي:

(أبو الحسن علي الحسني النّدوي) السّيرة النّبويّة. دار الشّروق. جدّة. الطّبعة الأولى ١٣٩٧هـ. ١٩٧٧م.

النّسائي:

أحمد بن شعيب بن علي بن بحر) كتاب السّنن بشرح الحافظ جلال الدّين السّيوطي وحاشية الإمام السّندي. دار إحياء التّراث العربي. بيروت لبنان (تصوير. بدون تاريخ).

النّووي:

(أبو زكريّا محي الدّين يحى بن شرف) تهذيب الأسماء واللغات. تصوير بيروت.

النّيسابوري:

(أبو الحسن علي بن أحمد) أسباب النزول. تحقيق السّيّد أحمد صقر دار القبلة. جدّة ومؤسسة علوم القرآن دمشق بيروت. الطّبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

النّيسابوري:

(الحسن بن محمّد بن حسين) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان مطبوع بهامش تفسير الطّبري. الطّبعة الأولى بولاق ١٣٢٩هـ.

ياقوت:

(شهاب الدّين أبو عبداللّه ياقوت الحموى) معجم البلدان بيروت. ١٣٧٤هـ ١٩٥٥م.

●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

دائرة المعارف البريطانيّة الطّبعة الرّابعة عشرة.

المعجم الوسيط. مجمع اللّغة العربيّة.

الموسم الثقافى لكلّيّة اللّغة العربيّة للعام الدراسي ١٤١٨/١٤١٩هـ جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة.

فهرست الموضوعات